عبد الكبير الخطيبي

صيف في ستوكهولم

ترجمة فريد الزاهي

صيف في ستوكهولم

تأليف
عبد الكبير الخطيبي

ترجمة
فريد الزاهي

مراجعة
محمد بنيس

هنـــداوي

صيف في ستوكهولم

عبد الكبير الخطيبي

Un été à Stockholm

Abdelkébir Khatibi

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٦٤٧ ٦

صدر أصل هذا الكتاب باللغة الفرنسية عام ١٩٩٠.
صدرت هذه الترجمة عام ١٩٩٢.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيد الدكتور فريد الزاهي.

المحتويات

مجرَّة	٧
المرأة الأخرى	١٥
الفضاء الحد	٢٩
نشوة باردة	٣٩
إلى زهرة البراري	٥٣
رسائل متقاطعة	٦٩
صلاة	٧٩
المربع السحري	٩٣
تغيير في الاتجاه	١٠١

مجرَّة

لم تَعد بي حاجة إلى العجَلة؛ فمدينة نيويورك نفسها كانت تبدو وكأنَّها تجري. كانت استعداداتي النهائية للرحيل سريعةً جدًّا إلى درجة أن تلك السرعة المتشابكة أثارت في داخلي دوارًا حادًّا، وإنْ لحظيًّا، ناتجًا عن صرير الضَّوضاء.

في مطار كيندي أخذتُ مكاني في الطائرة من غير أي شعور بالرعشة. اجتاحَتني بغتة أحلام هاربة. كان الإقلاع لطيفًا. ولم يَعتورني أيُّ إحساس بأني أحلق مع رُوح الطائرة، إنما خلتُ نفسي محمولًا في لبِّ ذاكرة مُتألقة، ذاكرة تسمق في فضاء مرصَّع بالنجوم. ورأيت نفسي فيما يُشبه الوميض. أرحل من مطار لآخَر، مُركِّزًا نظراتي إلى أمام. كانت النظرات تبدو مُحلِّقة لبرهة، ثم تهوي أمام جمال السماء.

كنتُ أراقب الأرض من نافذة الطائرة وهي تَبتعِد في انحناء مُستمر، قبالة نور ساطع، لتختفي أخيرًا؛ بينما كانت الطائرة تستوي فوق غمام سارعت الريح إلى تشتيتِه. كانت تلك هي النِّسمة التي ستقودنا إلى مُنتهى هذا اليوم، كي يتفرَّع في أوجهنا وأيادينا وعضلاتنا، وأعصابنا ونسيجها العاطفي.

حدَّقتُ في الأفق وتموجاته. وأظنُّ أني فعلتُ هذا بهدوء كبير. هل أردُّ مبعث ذلك إلى طبيعة مهنتي؟ ألستُ رحَّالة محترفًا يرغب في عبور الحدود بمرونةِ رُوح خاصة. إنها مرونة لا أتوفَّر عليها بالضرورة خلال كل تغيير للمناخ أو البلد أو اللغة، بل ولا خلال كل تبادُل للنظرات والكلام.

فكرتُ لبرهة في عملي. حياة برمَّتها، جزء بأكمله من حياتي كرَّسته للترحال! فكيف أعود بالقرب من نفسي من غير أن أفقد نُقَط توازني؟ أتصوَّر مجيئي إلى هذا العالم بسرعة تزيد من شساعة ما يفصلني عن ماضيَّ، تحجُبه، تنتزعني من مدينتي الأم ومن جذورها القبَلية الرابضة على شاطئ أحد المحيطات. آه لو أنضج دون أن أستسلم لهذه المسافة!

بعد أن فسختُ حزام السلامة أشعلت سيجار «هافانا» وأغفيتُ. نعم، السفر يُؤهلنا للتناجي ولفن الكلام السماوي. وأنا أعشق هذه الحميمية المفروضة بين المُسافرين. حميمية يحافظ عليها وهم حياة نبيلة: حركات خفيفة، بسمات، كلمات مُتبادلة بلُطف، طواف طقوسي لرئيس الخُدام والمُضيفات اللواتي كنتُ أتملَّى في طلعتهنَّ المَرِنة ومِشيتهنَّ المُتوازنة وخَطوِهنَّ شبه الراقص. وأنا جالسٌ على يمين مقصورة الربَّان كنتُ أقول لنفسي بأن السفر هكذا، تحت ظلِّ جسدي، يُوقظ في الروح أفكارًا غير مُرتقبة؛ فيما تغدو صورة كل سفر في الذاكرة سلسلة لا مُتناهية من الذهاب والإياب كما لو أن المُسافر أمام رقعة شطرنج يَجد فيها نفسه وقد حملَته اللعبة.

إنها لعبة ستكشف لنا شيئًا فشيئًا عن مراحلها دون أن نكون قد تلقَّينا أي رسالة مُبهمة. فلا أحد فرض على هذه الحكاية منطقها ولا تركيبتها الحق. بل ليس في ملكِنا نحن ما يُمكننا من تفكيكها. نحن؟ كل شيء سيتمُّ في غياب أي عقد بين القارئ والراوي، ومِن وحي اللحظة لوحدها: إنه تقسيم سرِّي للضوء والظل بين الوجوه والمشاهد واللوحات والآثار، وعلى بساط من الشمس والثلج المكفن. فهذا مشهد خفي قد تغيب في أغواره الأرض تحت الأهداب. ولن يتنزل أي ملك ولا شيطان ولا كتاب ثرثار تنهشه حروفه، وحدها تبقى الارتجاجات الصمَّاء وهذا السباق نحو الأصيل وجدار الصوت فهل أغفيت؟

من الداخل تبدو حركة الطائرة وكأنها متحف حيٌّ موشًّى بالصور والمَجازات. كانت عيناي تلتقطان صورًا لكل مسافر ولوجهِه المنحوت بحدِّ مناخ بلده وعاداتها. كل واحد هنا مُطالَب باحترام حضور مُجاوريه والخضوع لأعراف السفر الصارمة. أفليس إتقان الجلوس والانضباط في الرقعة الفضائية بدون اعتداء على فضاء الآخَرين شيئًا مُرتبطًا بالتحليق في أعالي الجو؟ ديانات كثيرة بزغت هكذا، انطلاقًا من فكرة ملائكة نورانيِّين وعبر التيه في جسد التاريخ. وأنا الذي ظلَّ غافلًا لمدة، أحسُّ نفسي الآن بعيدًا عن هذا الزمن السماوي الذي يتحدَّث عنه عشاق الله بشكل خارق. لن يُقنعني أي مجاز بهذه الهشاشة في الطيران دون تحليق، وبقُدرتي على نشر أجنحتي الأسطورية، كما لو كنت وُلدتُ في مركز السماء. وكما لو كنتُ سأنتقل من محطة إلى محطة كي أحط على الأرض في صورة جنيٍّ، كي أحطَّ وأصعد في هُدوء وبين شفتَيَّ سيجار.

من جديد تأمَّلت الرُّكاب جنبي، تحت هذا الضوء، وهو ضوء مُزدوج، كانت هيئاتهم المنحوتة تأخُذ باستمرار أشكالٍ مُغايرة تحت تأثير طواف المُضيفات. كن يَنطلِقن، ويتوقَّفنَ

ليُعاودن الانطلاق، يَقُمن بإطلالة من هنا وأخرى من هناك، حسب ضيافة دائرية وشفَّافة. أيتها الراهبات الباسمات، يا راهبات من لحم وحديد صائت، قلنَ لي بأيَّة سرعة تختبرن أعيننا وأعصابنا؟ بأية رشاقة تُوجِّهن توازنكن؟ فلتُدِرن مِن فضلكنَّ أوجُهكنَّ نحو ظلِّ غُنجِكنَّ، وإذا ما غيَّرتُنَّ بسمَتكُنَّ أو محطة عشقكن. فلتحفَظن السر، لتحفَظْنه.

أحيانًا، كانت المُضيفات يتحادَثنَ وأجسادهنَّ تتَقاربُ مِن غير أن تتلامَس، أو تختلط الأدوار في فرحة سأكون أنا كاتبها النَّزِق. فأنا أفقد عقلي حين تَفتِنُني رشاقةُ حركة واحدة. لكن من أنا، هذا الذي يكلمكم الآن، حتى أقودكم في رحلة هذه المُجاهدة بدون أن أكشف عن نفسي؟ من أنا حتى أستقبلَكم في عز السماء من غير أن أكشف عن هويتي، هويتي الحقيقية؟

أفقتُ على بريق شقراء. انبلجَ وجهُ المُضيفة مِن زمنٍ سحيق، كان إصراري الأكيد على التملِّي فيها من خلال هذا التقابُل المُعلَّق، حقيقة حدثٍ فِعلي. بالرغم من ذلك لم أحسَّ بأيِّ سحر أو سعادة. ففي الحالة التي وصلت إليها، لم أكُن قادرًا على غير إطباق الجفن. كانت المُضيفة بعيدة المنال وهي ماثلة أمامي، قريبة مني وهي بعيدة عني. ذلك ما فكَّرت به في صميم نفسي. هل أحادثها؟ كنت ثابتًا في مكاني وصامتًا لا أمتلك أيَّ مُرتكز أرضي غير هذا التقاطُع من النظرات.

كانت تُجيب المسافرين بلطافة ويُسر أوحى لي بأنَّ لها دراية نبيلة بالكائنات وتدبيرًا دقيقًا ومسبوكًا. في تلك اللحظة تغيَّرت وجهة سفري بشكلٍ محسوس. استدرتُ نحوها. كانت في انهماكها تدفَع بعرَبة الأكل بحيوية، وكل حركة منها تَحجُب الأخرى، رامية بها في مجال سديمي. على هذا النحو، إذن، تَنتفِي أي حركة آلية. لكل حركة شفافيَتُها. قدَّمَت لنا الأكل ورفعت المائدة بنفس السرعة. وهي سرعة حرَّرَت فيَّ تأمُّلي المعتاد. ألم تُلاحِظوا أننا حين نُوجد على متن طائرة يأتينا ذاك الإحساس الغريب بأننا نَسكُن مغارة بدائية كقِردة مُبرمَجة؟

تحرَّك المشهد من حولي. قالت سيدة عجوز للجالس جنبها: «حين أركب الطائرة، يُصيبني الهلع على الدوام». كانت تتحدَّث بلهجة أمريكية محشوة بكلمات أجنبية مصطنعة. «تابعي حكيَك أيتها السيدة العزيزة؛ فأمامنا مُستقبَل مُصغَّر.» «آه، كم هي جميلة تعبيراتك!» غالَبَها الصمت من جديد. وحين أرخيت أذني الثالثة وصَل إلى سمعي صدى غريب: «أنا أعيش في بروكلين مع قطِّي ... ست عشرة سنة من الحياة المشتركة. إنه أكبر قطط الحارة سنا ... يموء بما يُشبه النباح كما لو كان يريد أن يتكلم.» «أية لغة،

سيدتي العزيزة؟ ربما كانت الاسبرانتو.» نظرَت إليه وهي تُتابع كلامها والدهشة تغمرها: «مرة يكون قطًّا ومرة كلبًا ... إنه يخترق المجهول. وقد أشار علي طبيبي الخاص بالقيام بحصص من «التأمل الروحاني» هكذا قال لي.»

مرَّت عن بُعد طفلة تحمل في اليد طيارة ورق آلية. قام طفل آتٍ من الجهة المقابلة بمعاكستها. سقَطا أرضًا ثم نهَضا والابتسامة على فمهما، ويداهما متشابكتان. هكذا أتذكر طفولتي ومتاهاتها. إلا أنَّ ممر الطائرة الذي ليس سوى خط مستقيم كان يحدُّ من غوصي في عُمق الماضي.

استدرتُ مرةً أخرى. رجل ياباني يتفنَّن في استعمال آلة صغيرة أجهلها. حدَّقتُ فيه، ظل يفكر ويُعاود الحساب. كانت زوجتُه أو «جيشاه»[1] الفاخرة تبدو وكأنها تعود إلى هيئتها العتيقة كنصبٍ مرمرٍ، فيم كانت تُفكر وهي غارقة في ذاك الحلم الجامد؟ على يساري زوج غريب. «ضعي ثقتك فيَّ يا عزيزتي، سأنتزعك من آبائك.» أجابت المرأة الشابة: «لكنَّهما المسكينان تُوفيا.» «هناك الآخرون، كل الآخرين.» وفكرت هي: «يلزمني يومًا أن أُجرجره على سريره كجعران وأتركه ينام لأغادر المكان وأبتعد تحت نور استوائي.»

تعرَّفت على لهجته الفينيسية من كلماته الأولى. كان جليسي يُحادثني بصوتٍ خافت. صوته خالص، يعلو ويَنخفِض تبعًا لتنامي الحوار. أصبح الحديث حيًّا من الوهلة الأولى. حين سمعته يقول لي: «هل شاهدت وأنصتُّ حقًّا لمذيعي تلفزات أمريكا الشمالية؟ يا لثقة النفس التي تبدو وكأنها خرجت للتوِّ من الوعظ والحديد الصلب!» اقترحت عليه للتوِّ ما يلي: «لكن ألا تقترح تلفزتكم «راي أونو» (القناة الأولى) لجمهورها، كاباريهًا مُستمرًّا في بيوتهم؟!» حدَّق فيَّ بدهاء، هل تجاوزت حدود اللباقة في اتهامي إياه؟ وبنظرة خاطفة رمى بي بعيدًا عنه، صمت، ومن جديد غيَّر لهجته كما لو كان يُوجه كلامه لإنسان آخر جالس في مكاني، لا في هذه الطائرة، وإنما في صالون أحد الفنادق الدولية، مُعلنًا إلى نسيج عنكبوت إلكتروني، بقيتُ مُنحازًا إلى ظلِّ كلامي. استطرد ألبرتو بحيوية: «كاباريه دائم في البيت! ولم لا؟! نحن الإيطاليون فنَّانو فرجة.» تأمَّل البابا في الشاشة الصغيرة، يا له من فنٍّ قداس إلهي! تأخذه الكاميرا عن بُعد، ثم تقترب تدريجيًّا من هالته المقدسة؛ لطافة وسمو وتجلٍّ رباني. إنه معجزة زائفة، لكنه يبين عن مُعجزات أخرى، تلك التي لم يَسبق لأحد أن

[1] المرأة باللغة اليابانية.

عايَنها، تأمل في بساطة حركاته، وفي بسمتِه، إضافة إلى كلامه الطيب، كلام مُقتضب، نابع من صلب صورة مُنسابة يتوجَّب معها ثلاث كاميرات لتجسيد الثالوث المقدس؛ الأولى للأب (البابا نفسه)، والأخرى للابن (نحن، المتفرجون ...) أبدى تردُّده. انتظرت: «والثالثة؟»

– الثالثة للروح القدس الذي نقوم نحن بفنِّ عرضه. إنه أحد أسرارنا الفنية التي نتوارَثُها قرنًا بعد قرن حتى تخوم الزمن.

– نعم، فهمت.

– هل أنت متأكِّد؟ هل أنت متأكِّد من ضبط الوهم البصري؟ فالبصر الذي يرى كما يجب يُجرِّد الصور من أشكالها. إنه يُؤطرها في طابع ثقافي مُؤثِّر. فنحن لا نرى إلا انطلاقًا من حدٍّ ما.

– حدٍّ ما؟

– ألق بنظرك معي عبر النافذة. السماء من ناحيتنا صافية. ومن الناحية الأخرى تبدو الغيوم وهي تتجمَّع. وفي الأسفل آثارٌ أكثر خفاء. هكذا تُسافر الغيوم فوق البحر. أَلاحظْتَ آثار البواخر التي تمخر البحر؟ وتلك الجزر الصغيرة التي تظهر لتَنسحِب بسرعة معاكسة للنافذة، نحن الآن قريبون جدًّا من السويد. والحد الفاصل بين السماء والأرض والبحر تَناظُم سديمي من البصمات والعلاقات، إنه نظام اللاثبات، حد مُطلق في الفراغ؛ أي في صلب الزمن نفسه. فراغٌ بدون فراغ ... تأكد بأننا في سماء ذات ذاكرة، وبأنَّ رحلتنا، أنا وأنت، ليست مُمكنة إلا بهذه المفارقة بين المادة وولادتنا للفور. فهل تُصغي إلي؟

ثم صمت. بدا الآن حالمًا وهو يتصفَّح كتابًا. كان يُمسك بدفتَيه مائلتَين جهتي. هل كان يريد أن يُشير إلى شيء ما؟ سطر تحت بعض الكلمات كما لو كان يرغب في أن يرسل لي بفكرة ويُهديها إلى تسليتنا المشتركة. لكن ذلك جاء متأخرًا. كانت كلماته الأخيرة مهموسة. هل سقطنا في ثُقب هواء؟ ها هي الطائرة تترنَّح بعنف كبير. الأمتعة من كل صنف تنصبُّ في فوضى عجيبة طوال الممر. ونحن كنا نرقص في أمكنتِنا، لكنَّنا لا نمتلك خفة الملائكة وروَّاد الفضاء. يحيد المشهد عن مركزه. يتصارخ الأطفال، وخدم الطائرة يُحاولون تهدئتنا بلغات عديدة، من جديد هوت الطائرة في ثقب هواء. أرى السماء تُبدل من موقعها. يمرُّ شهاب يخترق الطائرة فأحسَّ نفسي مُشعًّا ومُتحولًا في نكبتي: أشد بين رجلي، نعم، أتنفَّس ببطء، أيضًا نعم، أغلق العين والأذن، أنزل داخل نفسي وأمارس اليوغا. هل غيَّرت الطائرة طريقها؟ هل سقطنا في شرك كوني؟ أهي حيلة من اللامحتمل؟ الويل لمن يذكر بوجوه الموتى! الويل لمن يَصحب معه كفنه! أنا الآن مقذوف، أولد وأموت في نفس اللحظة، ندا لنفسي، ولتحوُّلاتي التي بغتة غدَت صلبة في تجاويف مقعدي.

ورأيتُ نفسي راكعًا أمام الله فيما كانت الطائرة قد استعادَت توازنها الكامل مُنطلقة بسرعة فائقة. رفعتُ رأسي فصادفت ابتسامة المضيفة. كانت بسمة متشنِّجة، نارًا انطفأ سعيرها. تعالَت على نظري، في زاوية مضيئة من الطائرة والسماء، زاوية تَنفلِت تدريجيًّا من إدراكي. فهل سقطت قرب نفسي، أو داخل ذاكرتي من غير أن تَفقِد وعيها؟ أية صدفة أوحت لي بها حتى أتمثَّل في تلك الصورة البهية؟

رفعتُ رأسي من جديد بحركة سريعة وخاطفة: جلتُ ببصري من حولي. وجوه كابية. نشيج مكتوم، وكلمات ينبس بها كما لتوديع الحياة. كان هنالك ظلٌّ يحوم حول الإشارات والحركات والأنفاس. بدت لي الكلمات في غير مقامها. غرتُ في هذا الصمت حتى خلتُ نفسي أملك مكارم رجل الخلاص. ثم قفزتُ في مكاني كي أُعاود الإغفاء، مشدودًا إلى سرعة الأحلام. كانت أحلامًا أوحَت لي بأني أطير من نجم إلى آخر. كواكب تَنطفئ فور ظهورها وألوان مُتناثرة في ليلٍ عجيب، إنها مجرَّة! هل أصبحتُ مستترًا عن نفسي، عاجزًا عن رؤيتها إلى هذا الحد؟ أظنُّ أني لم أكن أبتسم للملائكة، كما يقال؛ لكن لمَ بعد تلك الرجات حلمتُ بشامة امرأة وبتُوَيجات وردٍ مُتناثرة؟ لمَ هذه الحكاية وليس غيرها؟ فلتحُكموا بأنفسكم. من حيث أنتم، كنتم جالسين أو متمدِّدين، أو مُطلِّين على هذه الصفحات.

رأيتني آكُل «السمورغاس». أُلقي عليها نظرة خاطفة قبل تذوُّقها. إنها سندويتشات في أشكال مكعَّبة كادت تطفو لوحدها في الهواء وتغدو بدورها نُدَف ثلج مِن فرط فزَعي الذي أسكته أزيز الطائرة. بالرغم من ذلك أبصرت في السماء، وبالقُرب مني، بعض البصَمات. كانت ذاكرة بصرية تقود نظرتي الحالِمة الغارقة في التجلِّي نحو كأس شامبانيا بين الشفاه. تردَّدت نبرة صوت. أمسكت ببعض نُدَف الثلج وأنا أرشف معك هذه الكأس، معك أنت؟ نحن؟ فيما بعد، فيما بعدُ، وكما لو كنتُ غافلًا عن نفسي، أكلتُ في ستوكهولم وجبة عَلْند مشوي مصحوب بخمرة من البوردو المعتَّق، كان قنص العلاند يمرُّ أمام شاشة عيني: يتمُّ قتل وجرح الناس أكثر من الحيوانات. ستقول ضاحكًا إنها سلفية ترمي العودة إلى تقاليد الفكينغ. هكذا كنتُ أجول عبر غابات الشمال ضافرًا طرقات الذاكرة. لكن من سيُصدقني؟

الحلم الأخير كان يخصُّ مشيَتي الوحيدة في ستوكهولم. كان الثلج قد كفَّ عن السقوط. ثلج خفيف وبلوري، بساط مُتحرِّك يَلتوي مع انعطافة كل شارع. المشية الرشيقة للمارَّة. كل شيء كان يدعوني إلى شق طريقي بحزم وبدون تسرُّع. كنتُ أتمثَّل في الوجوه وفي الأعين خاصة، وفي حركاتها الخفية التي تشقُّ عن نظرة مستترة تكشف عن لغزٍ وأُفُق من

الأشجار والبحيرات الجامدة في قلب الزمن. نظرة خفية كنتُ أجسُّ نصاعتها الباطنة، وإن ظلَّ جمالها ورقته بالنسبة لي مبهمًا. قلت لنفسي بصوت عالٍ: «لكن لمن؟» سأكون في هذا البلد بحاجة إلى نسيان كل جَمال كي أستعيد صفائي الصامت.

كلَّما أمعنت في المسير، وجدتُ نفسي أسترجع زمن أحلامي. إنه زمن حياة يَقتفي آثار نفسه. كنت أطفو. نُدَف ثلج أخرى ثم يغيب الثلج. وإذا كنت الآن أحكي هذه الأحلام دون أن أنتبه إلى ما سيلحقُني فيما بعدُ، فإني كنتُ ولا أزال أدين بذلك للامبالاتي وحبِّي للمُبادَرة.

لكن إذا كنت آتيه بعض الشيء في أحلام تأخذ شكلَ صُوَر وكلمات سويدية، فلأنها تُوقظ في ذكريات سيتم الكشف عنها خلال هذه الحكاية.

حين عدتُ إلى نفسي، كان المشهد قد غيَّر من أجوائه، ومُجاوري قد غاب. غيَّر مسافرون آخَرون أماكنهم. كل شيء تمَّ في صمتٍ جنائزي. لا أدري إن كانت أحلامي قد تمدَّدت خلال المدة التي تلاشى فيها خوفي، أو أني، وقد استحوذَت على سرعة الزمن، سيتمُّ تنويمي بحركة غير مُرتقَبة بعد نزول الطائرة في مطار «أرلاندا». أمسكت بحافظة أوراقي وتحقَّقتُ من وثائقي بعد أن استبدلت النظارات، ثم أخذت طريق الخروج. هناك وضعت خطابًا رقيقًا في يد المضيفة. كيف تجرَّأت على ذلك؟ قلت لها دون أن أحيد بنظري عنها: «شكرًا على هذه السفرة». تبسَّمت وبما أن السماء كانت بعيدة فقد كان عليَّ الاعتماد على طاقتي الأرضية كي أشق طريقي في هذه المدينة وبين أهلها، ولربما، في خارطة قلبها ورُوحها أيضًا.

قدَّمتُ للجمركي جوازي بيدٍ واستعدتُه بأخرى. نظر إليَّ بفضول، قد تكون مهنتي أثارت انتباهه؛ فأنا مُترجم وأقوم بالترجمة الفورية، واسمي جيرار نَمِر.

المرأة الأخرى

تخالُه شعبًا في معبد. معبد قادتني خطاي إليه لأول مرة في عزِّ الصيف. هل سأنصاع أنا أيضًا لصفاء هذا المشهد الذي ملأتُ منه بصَري وأنا أصعد الحافلة التي أقلَّتنا إلى وسط المدينة؟ تاهَت عيناي للحظة في البُعد، بينما كانت الشمس تبدو وكأنها في احتفال. كانت تتراقص فوق تلك الأوراق المحاصرة بقطرات الماء الباردة.

راقبت من خلال النافذة جمال هذا البلد الصامت. جمال بارز الملامح حجَبَه عنِّي مجهودي في التركيز على نفسي تبعا لطقس من التفاني المُلغز أوحاه لي هذا الصيف السويدي. وكل ما تُبودل من حديث خلال الرحلة يشهد على ذلك:

– أيها الجار، يا جاري الجديد، هل تحسُّ هذا الفارق الصيفي بين الأيام والليالي؟ لسنا بعيدِين عن شمس مُنتصَف الليل حيث هي تنتظرك. لكن لتفهم أن الليالي البيضاء تَستدعي الخرافات والتخيُّلات العجيبة. انظر من حولك، سجِّل في ذاكرتك هذه الوجوه والأيادي المبسوطة على حوافِّ المقاعد. إننا نخالُها منحوتة على جدار.

بعد بُرهة من الصمت مدَّ يده نحوي وهو يُقدم لي نفسه «ألبرتو ألبرتيني». ومن يدٍ إلى أخرى اغتنمتُ لحظة ضائعة كي أتمعَّن في تفاصيل وجهه. قلتُ لنفسي: لمَ تُرافقني أمثال هذه الظلال؟ لكني أعترِف الآن أني كنتُ مُخطئًا. فألبرتو لم يكن نظيرًا لي أبدًا. وبعد أن تجاوَز تحفُّظي قال لي:

– أنا مُنتِج. أعني أني مُنتِج للصور والفرجات والمال والمقاطع.

– تعني أنك مُنتج لمجرة من الصور؟

– لديَّ مشروع إنجاز شريط حول حياة روني ديكارت في السويد.

– ديكارت والملكة كريستين، سيُلزمك اللجوء إلى الممثلة غاربو[1]

– لقد ولَّى عهد النجوم. لديَّ ممثلة لا تقلُّ جمالًا وصمتًا ورشاقة عنها ولها ميزة الحفاظ على مسافة كبرى بينها وبين الكاميرا حتى تكون قريبة من قوة نظرتها. إنها تُحافظ على إيقاعها الطبيعي المُنفتِح والمُستعد لتقبُّل أي مشهد مفاجئ. اكتشفتها السنة الماضية في مطعم. كنت أتفحَّصها طيلة الغذاء، من أمام ومن خلف. كان بإمكانها أيضًا؛ لأنها جالسة أمام مرآة، أن تُراقبني مُتحدِّثة إلى مرافقتها؛ فقد استطاع صوتها أن يُحرِّك المرأة وانعكاساتها عليها.

تابع ألبرتو مونولوجه قائلًا:

– مشروعي يطرح لي مشاكل لا تُحصى. ولستُ مُقتنعًا بحَلها بالقوة. لقد حدَّدنا مواقع التصوير كلها بالهليكوبتر. حدَّدنا المسار والخارطة، والسيناريو مُكتمِل. لكن كل شيء يبقى مُعلقًا.

– مُعلقًا؟

– لا يجب أن نَنسى الجملة التي قالها لابروبير في حقِّ فيلسوفنا. «وُلد في فرنسا وتُوفي بالسويد.» نعم، نعم، لمَ تمادى ديكارت في الاغتراب شمالًا؟ ما الذي كان يَرمي إلى تفاديه؟ نحو أي اكتشاف للذات كان يتوجَّه؟ أوروبيًّا، كان أول مُفكِّر أوروبي، لكن ألم تكن أوروباه غريبة؟

– لكلٍّ أوروباه الخاصة.

– لنَتذكَّر أن ديكارت وصَل إلى ستوكهولم في غضون شهر أكتوبر ١٦٤٩م وتُوفي بها في فبراير ١٦٥٠م. داء السلِّ عصف به. يقولون إنه مات مِن جراء ما فعلته به الملكة كريستين. ما الذي كانت تَبتغيه الملكة كريستين من حمله على النهوض في الخامسة صباحًا؟ هل كان ذلك لتتلقَّى منه دروس فلسفة؟

– فلسفة صباحية جديدة، بعد الليل اللاهوتي والصوفي للعصور الوسطى.

– هو الذي كان يحبُّ مثل مونطيني أن يظلَّ في فراشه إلى وقتٍ مُتأخِّر من الصبح.

غارقًا في التأمُّل. كانت كريستين مزاجية، غير قابلة للترويض. كانت شامانية.[2] هل كانت قد اكتشفت لعبته الاستراتيجية وأسلوبه في الحياة والتفكير؟ كان ديكارت يوهم

---

[1] Greta Garbo، ممثِّلة سويدية دخلت عالم السينما كهاوية. هاجرت إلى هوليود حيث كسبت شهرة عالمية وهي نموذج للشخصية الشهوانية.

[2] نسبة إلى رهبان آسيويِّين.

الآخرين بأن حكمته تَكمن في عدم الرهبة من الموت، وها هو يأتي ليموت هنا في حضن البرد والجليد. فلمَ إذن لا نبني حيلتَه على شاكلة فيلم فلسفي! هذا الفيلم سيبتدع أشكالًا مصحوبة بأفكارها الملائمة. فكلُّ فكر يكتب، من غير وعي، سيناريوها يكون غير قابل للقراءة. ومُهمتي تكمن بالضبط في جعل كل هذا مرئيًّا.

ارتفعت لهجتُه فجأة وغيَّر موطن حديثه:

– قبل أن تأتيني فكرة هذا المشروع عن روني ديكارت كنتُ أريد إنتاج فيلم عن موت أولوف بالم يكون في نفس الآن تسجيليًّا وتخييليًّا.

وما إن سمع المُسافرون هذا الاسم حتَّى امتلكتهم الرعشة. أحسست حولي بانفجار صامت وبصرخة في الفراغ. فكَّرتُ بصوت خافت: «ها هي ذي جريمة سرية مرةً أخرى. ويتواتر أعضاء نفس القبيلة اسم الميت على إيقاع الفصول.» وكما لو كان ألبرتو وصيًّا على هذا الصمت القلق، أضاف قائلًا:

– وأين سيكون مقامك؟

– في فندق ستراند.

– نعم إنه يُدير ظهره لظهري. ندير الظهر بعضنا للبعض. شيء لا أستطيع حياله فعل أي شيء. وها أنا الآن في صلب المشكلة. سأكون بحاجة إلى خدماتك كمُترجم. اتصل بي!

بما أن مقعدي كان بجانب النافذة فإني كنت مشدودًا إلى لعبة الظلال على صفحتها. ونظرًا لآثار الانعكاس، لاحظتُ على الأوجُهِ الشاردة كثافةً مُنغلقة على نفسها. كانت كثافة وديعة وإن مُتناثرة هنا وهناك في زرقة الأعين.

انتبهتُ أيضًا لنعومة الشَّعر المُنساب الذي مزجته الطبيعة، الجارية بمثل سُرعتنا، بأوراق العُشب، ومنَح للحُقول نكهة فضية غدَت قزحية بألوان الأزهار والانطباعات المتسكِّعة.

للتوِّ علَّمني هذا المشهد الخلفي طقس الهدوء الشارد لهذا البلد وفيضِه العَفوي المحجوب تحت نار غافية وليلٍ شمسي. وبينما كانت الحافلة تُتابع سَيرها. أثار حلمي النشط انتباه جاري الأبدي، تدخَّل ألبرتو قائلًا: لا تَترُك فكرك يَبرُد. غطِّه، اكسُ بذكريات جميلة، فأنا أعزُو هذه البرودة اليوم إلى الفارق الزمني.

نزل ألبرتو من الحافلة قبلي، واختفى في سيارة أجرة. انتظرت دوري قرب المحطة الرئيسية. وورائي تكون طابور مُتعرِّج شيئًا ما، يتقلَّص باتجاه ذاك المتخنِّث ذي القرطين

والظفيرة المُلقاة على القفا، ويتمدَّد ليتيهَ في جسدٍ صقيل؛ سروال دجين، قميص أسود، قامة مُجدوَلة ونهدان نافران.

هذا الرسم، المُقتطَع للتوِّ من اللحظة، ذكَّرني بهذا التعبير: ذكرى قيد التبريد. لا أدري بأية طريقة منامية سيتمكَّن هذا الرسم من الانحفار في نفسي ورفع حجاب الزمن. أظنُّ أن الذكرى التي تُباعد بيننا في لحظة ما من حياتنا تنعزل في غور ذاكرتنا كلوحة سها عنها الرسام في زاوية مغبرَّة من معمله. وحين يعثر عليها في يوم من أيام عطلته فإنه يكتشف صورة امرأة عشقها حتى الوله في الماضي؛ ثم حين يتملَّى الرسام في اللوحة بعد أن يُغمض عينَيه كي يُوجه ذاكرته نحوها، يُلاحظ أن الرسم العاري المُتخفي تحت الألوان لا ينتمي إلى نفس الموديل وإلى نفس المرأة، وأن هذه الصورة المُنطبعة على اللوحة فتَنَته إلى درجة غيَّر معها قصة حبه.

ربما كنتُ في حالتي هذه أُشبه ذلك الرسام! فهل تكون مهنتي إذن ذريعة لقصص حُبي؟ فالسفر وتغيير البلد واللغة يُثير فكري وفائض لذتي. كلَّما عبرت حدود بلدنا إلا وانتابني حدس بأنَّ سرًّا ما سيُفضي إليَّ. هل أنا مُتطيِّر إلى هذا الحد؟ فأنا لا أومن بالحظ ولا بانتظار الذي لا يأتي. الانتظار؟ النوم يقوم به لحسابٍ فكريٍّ وأيامي الشائخة. يشيخ النوم: يا لها مِن فكرة! وإذا كان الأمر كذلك فما سيكون مآلُ الحلم في دروة مُتعي؟

كان السائق يقودُني بهدوء نحو الفندق. تحدَّثت معه بالسويدية، وهي لغة أعرف منها بعض النُّتَف وكذا شفرة سرية سأحتاجها لتأثيث نسياني وثقوب ذاكرتي. نُتَف مُتوحِّدة، معزولة داخل الماضي، كأنها مسروقة من سرعة الترجمة ومن ذاكرتي المشحونة. إنها لغة أتلقاها بالهمسات.

في الفندق ناوَلني مُضيف الاستقبال ملفَّ المناظرة ورسالة، ومعها مفتاح غرفتي المذهب مثل الفندق المحاط بالكروم البرية. كانت غرفتي، الموجودة فوق أقواس مُتراصَّة قبالة البحيرة، تبدو وكأنها تطفو قرب الزَّوارق. فتحت رسالة دونيز: «اسمع يا جيرار. أنا لا أشتكي منك ولا ألومك أبدًا. كيف الحديث إليك الآن؟ قد تكون بينَنا الآن مسافة لا يُمكن استدراكها، أنا لا أنحني أمام سلطة الانتظار ولا أمام ذاك الأجل الذي حدَّدناه بالهزل أكثر منه بالقناعة العميقة، كيف سنَحسب خسارات أحاسيسنا؟ أود لو نترك ابننا المشترك جانبًا لحمايته مني ومنك، هل ستكون حاضرًا في عيد ميلاده؟ بعد رحيلك أعدت تنظيم أثاث البيت، وعلقت بعض اللوحات الأصلية منها والمنسوخة، والرسوم التي كنتُ محتفظة بها. حلقت شعري حسب العادة الطقوسية لدى الحلَّاقة، وهي لا تزال تُحدثني دائمًا عن

عُشاقها الذين يتوافَدُون عليها ويهجرونها، كدَورة الفصول، ومن فرط ذلك يُصيبنا جنون الضحك. بكينا ضحكًا لما حكت لي كيف تغير من نظرتها وصوتها حين تلتقي صدفة أحد عُشاقها القُدامى، إنها تُحاكي ذلك بشكل رائع، في بيتنا الكثير من المداخل والمخارج الخيالية. هل أنصاع للانهيار النفسي؟ لا، خصوصًا بعد مُشادتنا الأخيرة. لقد تعلمت منها شيئًا عن نفسي: إني عزلاء أمام إيماني بالحب. حناني إرادتي. انا سهرانة.»

كنتُ قد أصبحتُ إنسانًا آخَر حين تركت الفندق لأجل موعد مُفترَض في مقهى برنسن. هل ما يزال العمل جاريًا بموعدٍ ناتج عن خطاب عِشق رقيق؟ لمَ هذا الوفاء الغريب لفنٍّ نبالة ولَّى عهدُه؟ هل بإمكاننا أن نَلتقي بإنسانة غريبة حسب فنِّ المبادرة هذا؟ أبصرتني لينا مُقبلًا نحوها، حاملًا لا مُبالاتي الصيفية ومُفعمًا بها. لم يخنِّي حدسي؛ فقد قبلَت لينا الموعد في المساء الأول لوصولي! لكن لمَ يَميلُ فضولي العاشق إلى مُغازلة الأجانب؟ ما هو الشيء العجيب الذي يُميز المرأة الأجنبية؟ أرتاب في أن خيالي ينصاع لإكراهات غامضة. ربما حين تصغر صورتي في عيني أقوم بحث فتيات جميلات وغريبات على إغرائي. هل يكفي هذا لمنحي رباطة الجأش اللازمة؟ المُهم أنها جاءت للُقياي.

كنتُ جالسًا قرب النافذة، شاردًا من فرط حركة الداخلين والخارجين من المقهى. حين يدخُلون يقولون Heje وحين يخرُجون يقولون Hej da! إلى درجة غدا لهذه الكلمات في سمعي المُغترب وقع نشيد أول.

أبصرتها تُوقِف دراجتها الهوائية لتتوجَّه نحو طاولتي دون أن ترفع عينَيها. رفعتهما أخيرًا صَوبي: لحظة مواجهة، فكر اللامحتمل ورَوعة اللحظة. في أي مشهد كنت محمولًا ومنقولًا حتى أستطيع استقبالها في الهواء، وفي مُنتصَف الطريق. وبما أن رحلاتي المتكرِّرة علَّمتني أن أقف عند حدود قوتي (وهي قوة مُنفتِحة بحقٍّ على فوضى الحياة البسيطة) استعنت على أمري برُوح الملاحظة لديَّ، ابتهجت لظهورها، ونهضت لاستقبالها ولأُقدِّم لها مقعدًا، ذلك المقابل لي، لكنها، ويا لَلغرابة، أخذته وحرَّكته ثم أدارته لتستقرَّ على مقعد آخر. هذا الاستفزاز المُفاجئ والمَرِن زجَّ بنا للتوِّ في نظام اللياقة وترقُّباتها.

كان الاعتقاد في مجيئها أو عدم مجيئها بالنسبة لي مجرَّد لعبة. قد تكون استجابت لإشارتي وفي نيَّتها لعبة مُغايرة وحوافز خفية. في البداية كنت مُضطربًا كما لو أن طموحي الأوَّلي أنهكني. أحسستُ بالضعف أكثر أمام تلك العيون الزُّرق الشفَّافة الحالمة. وغدوتُ لطيفًا لرؤية ذاك الوجه ذي المسحة المتوحِّشة. كانت رقة ملامحها تبدو وكأنها تسري في

حركاتها وزينتها وطريقتها في الإنصات لصَمتي. وأنا أقول هذا، وفي اللحظة التي حيَّيتُ فيها لينا، لم أكُن أدري في أي امرأة أخرى كنتُ أفكِّر. فمنذ النظرة الأولى في الطائرة اختلطَت في نفسي الذكريات الباردة، وكان علي أن أنطبع على لون الزمن وذاكرته المُتناضدة.

هذه الإقامة ستُمكِّنني من اكتشاف ستوكهولم. مدينة على حوافِّ الماء، بُنيت لأجل وئامٍ غدا مرنًا بشتاءٍ مُستمر. سيقول لي ألبرتو: «هنا يُمارس الناس الطلاق في شهر مارس؛ لأنَّ فصل الشتاء طويل جدًّا. إنها الفترة المُثلى والشهر المفضَّل لمصاحبة امرأة أخرى.» وسيُضيف: «في السويد يَلزم البدء في مغازلة النساء في الصباح لا في المساء. وليس أبدًا داخل حانة؛ فالليل الشمسي محكوم بفائض الصمت الصباحي.»

حين قدَّمَت لينا نفسها بدَت لي صريحة جدًّا ومطبوعة بسُخرية فاتنة. لاحظت في الطائرة دقة حركاتها ورشاقة مشيتِها. وإذا ما عُوينت تلك الدقة والرشاقة عن قُرب، فإنها تَنتقِل نحو أهداب الشَّعر التي تُعيد ضفرها بسمة مُشرقة. حين أُفكِّر الآن في صورة لينا أتساءل عما إذا كانت صورة سجادة قد حلَّت محلَّ جسد هذه المرأة. هكذا تبدأ ضبابية الجسد وجاذبية فوضاه، وأنا الذي كنتُ أترنَّح بعض الشيء، هل كنتُ مُطالبًا بالتنحِّي من أمام هذه الفتنة غير الجارحة؟

إنه الجرح أو المسافة التي أستطيع منها الإنصات للينا من غير أن أضيع في سحرها. ما يُقابل هذه الحالة الحسِّية والمناخية هو بالأحرى العشق البارد، بَغتة قالت لي لينا: «ترجمان فوري! أنا التي اعتقدت أنك ...» علَت وجهي الحمرة في قلب هذا الكلام الذي لم يَكتمِل، مثل أي بداية حب مطبوعة بالتردُّد والخجل المُتعارَف عليه. قابلت الصراحة بمثلها وأجبت: «بما أننا غرباء الواحد عن الآخر، أتساءل إن لم أكن قد وقعت عليك ... احكِ لي شيئًا من حياتك.» داورت سؤالي وعليها مسحة من الشرود: «في بلد شديد البرودة يكون الفقر قريبًا من الموت ... أعني فقر القلب.» لكنها عادت للمواجهة: «هل تحبُّ أن أحكي لك حياتي على طريقة الساغات[٣] أو كفيلم لبرغمان؟»

كانت المدينة، من خلال النافذة، قد تحوَّلت إلى مشهدٍ طبيعي حالم يعود الليل منه إلينا تدريجيًّا ليَطبع على شفاهنا نشواته الأولى. سعادة الأصيل ولحظات نادرة لوئام مكتوم. ضحكنا ونحن نترك المقهى باتجاه «حديقة الملكة». كانت زُرقة السماء قد ولجَت

[٣] الساغا Saga ملحمة تتميَّز بها الشعوب الاسكندنافية.

بوضوح عالم الليل واخترقت بداية تلك الليلة الشمسية؛ بينما كانت الخُضرة وهي تُحدد أعالي الأشجار تترُك بصماتها في الهواء وعلى ظلال الأرض التي كنتُ أراها بدورها تتَّجه إلى السماء. هذه الصورة لا تتجاوز لحظة دوار خاطفة، إنها خربشة قلم.

وأنا أمشي بالقرب من لينا وكأنني أقتفي خطواتها، بدأت أتملَّى في هندسة المدينة والحركة المتلبِّدة الصامتة التي تُسند الأسوار والأزقة والشوارع. كان صمتًا يائسًا، طورًا من فرط أزيز المحركات وطورًا أليفًا بهمهَمات المطاف. من حينٍ لآخر يُحلق نَورس فوق البُحيرة كما لو كان يريد إرسال إشارة يُنغمها بنفسه، ثم يغوص باتجاه السمكة التي يبتغي اصطيادها ويَرفع عُنقه علامة على رضاه. وأنا الذي أصطاد الآن هذه الصورة على امتداد الزمن، هل أنا متأكد من أني قُمت بالمديح الملائم لنَورسٍ عادي ولرشاقته المجنَّحة؟ فالنَّورس سواء زخرفه الأصيل أو نزع عنه زينته، يظل مقطعًا مُتحولًا من الطبيعة.

تبادَلنا الحديث أثناء الطريق، وتوقَّفنا أمام هذا المنعطف أو ذاك: مشاهد طبيعية، شوارع أو أزقَّة، مُلصقات أو لافتات؛ بحيث تغدو المدينة أكثر رشاقة وخفة. في «حديقة الملكة» ذكرني الجو السائد فيها بحفلة سنوية. غابت لينا للحظة. جلست إلى مقعد في زاوية منعزلة من الحديقة. امرأة أكثر شيخوخة من يديها انحنَت نحو العشب العاري كما لو كانت تَقطِف زهرة لا مرئية. كانت حركتها المُزركشة قد هدَّأت من رغبتي السرية المسكونة بحديقة رُوحية وبعدد لا مُتناهٍ من الزهور. هكذا، حين تُفكر نفسي في الحب، تنقسم إلى جزئين؛ أحدهما لا مبالاة وحب للمبادرة، والثاني فضول دائم ممهور بعشق بارد. وليس غير الإيقاع ينسج المفارقة وحلَّها اللامحتمل.

حين كنا نُمشط الحديقة بنظرة حية، كنَّا نُفاجأ بمسرب يجمع من السيَّاح والمتسكعين في مطاعم مُتواضعة. كانت تلك المطاعم العادية تتراصَف في هدوء إيكولوجي عجيب، بحيث يلزم تركيز الذهن على فكرة واحدة إذا نحن أردنا دقة الملاحظة.

ارتبطت تلك الفكرة، للحظة، بالممر الصيفي للدراجات الهوائية الذي بدا وكأنه يَمنح نفسًا لهذا الشعب، نفسًا يكون وسطًا بين الخطوة والسرعة اللامتوازية للسيارات. فمثل عربة الجر القديمة التي كانت العرافات يستخدمنها، تزيد الدراجة هنا من الاختيال العاشق للناس. آنذاك تَنفلِت الجبال والغابات من بُؤري العاطفية حين يُدخل ذاك الاختيال الاضطرابَ إلى عيني.

لحقتُ بلينا الواقفة أمام لعبة شطرنج ضخمة. كانت قد جدَّدت وضع الأحمر على شفتَيها، وعليها قميص حاكَته بمهارةِ يدَيها الفائقة. كانت مرتخية، بَشُوشة وساحرة، ولم أكن أفكِّر كثيرًا فيما إذا كنتُ سأعجبها أم لا.

راقبْنا اللاعبين وهم يَنحنُون على البَيادق. كان هناك مُتفرجون شباب بأقمصة صيفية. وعلى يميني ثلاث عجزة جالسون على مقعد. كان أحدهم مُتكئًا على عكازة بيضاء محدقًا في مركز اللعبة، إنه مركز فارغ تتساقَط البيادق الواحد فوق الآخر داخله كما لو تعلق الأمر بكبوات فرسان في ثلوج الزمن الغابر.

كم أتحدث بشكل رديء عن ذاك الماضي المجيد. ذلك أن لعبة الشطرنج كانت تسلية للنبلاء توارَثَها أولئك الذين كانوا يتمرَّنون على الاستراتيجية عبر وضع الضُّعفاء أمام ملك ميت أو إله من جليد. وأنا الآن ليس لي سوى التضرُّع لأودان، ذاك الإله الذي سن العلامات والغناء لبني البشر.

لكن كل هذا ليس سوى حلم يقظة؛ فحصن الملك الحي كارل السادس عشر لم يكن بعيدًا عن الحديقة. وقبل أن نصل إليه توقفنا أما نصب جوستاف الثالث الذي تُشرف قاعدته على الماء ويَجذب إليه نفس القدر من السياح والنَّوارس — أو العكس — في فوضى مُبرقَشة.

هل منحَت لينا نفسها للمسات بصَري، وقبل أن تصلَها أيَّة إشارة مني؟ كانت تُداعبني عن بُعد وكأنها خارجة من حلم عتيق. فجأة نسيتُ لينا ورأيتُ نفسي على سطح بيتنا الأصلي أجول بنظري في آفاق المحيط. لقد كبرت متاهةٌ تغيب منها الشمس في الباحة. متاهة ذات بلاطات مُستطيلة وأدراج صاعدة باتجاه السماء؛ حيث كنتُ أجلس على نجمة كبرى من الفسيفساء لأُلاعبَ ابنة عمي. ثم إني لا أتذكَّر أي شيء، فكلُّ شيء كان قد تلاشى. لينا، لينا، أين أنتِ؟

كانت لينا قد توغَّلَت في فسحة مُنعزلة عما يحيط بها إلى حدٍّ اضطُررنا معه عن قصد مشترك أن نَقترب أكثر في وحدة هذه الجملة: «كنت على وشك عدم المجيء.» استدرتُ نحوها. كانت متَّكئة على دربوز تُتابع بنظرها، كما بدا لي، شقوق المُوَيجات، هناك حيث تتداخَل المياه ويغدو تجعُّد سطحها بلوريًّا ذا زبد خفيف يَنتهي عند طيران نورس أو أي طائر مسحور آخر. تحركت الريح ونثَرَت شعر لينا في الظلال. تعتَّم الليل ومعه تعتَّم وجهي. وبالرغم من ذلك، كان الهدوء يعمُّ كل شيء. في البعيد، كانت أشباح أصيلية تَنتقِل من جانب لآخر من القنطرة تحت زرقة السماء. زرقة كانت تنحو نحو السواد تحت غيوم مُتحرِّكة وإن بدت غير مثقلة. كان ألبرتو سيقول لي: «الصيف هنا فاصل قصير بين شتاءين طويلين.»

أحسست بنظر لينا يتوقَّف عند يدي: «كان لديك خاتم زواج في هذه اليد. لمَ نزعتَه؟» أجبتها مُضطربًا: «اتفقتُ أنا وزوجتي على سِنة من التفكير قبل أن ...»

– «سِنة من التفكير؟ التفكير في ماذا؟ هل في تلك القوة اللازمة لعيش سَنة بيضاء من الراحة؟»

تردَّد صدى ضحكتها الساخرة قُرب وجهي ليَسرِق منِّي نفسي. ما الذي حدث؟ لمَ هذه اللحظة القاسية؟ ومن فرط الجرح الذي أصاب كبريائي كنت أطفو في زمن غير واقعي. ما الذي كانت تبتغيه مني؟ يا لها من كائن عجيب وغريب الأطوار؛ وبما أنَّ كبريائي قد فرض عليَّ بعض الصرامة؛ فقد اضطُررت إلى مسايرة رُؤياي الداخلية بحيث بدت لي كل صور العالم فائقة الهشاشة. وفي ومضة برق، ومِن غير أن أوجه نظري إليها أدركت فجاةً ولَعها بالحالات المُحرجة. ضحكنا، لامستُ يدَيها وكتفها. وبسرعة غيَّرتُ موضوع الحديث بينَنا وانفلتَت من عناقي المختلِّ السابق لأوانه. كنتُ أنا أيضًا أتصارع مع عواطفي.

كنا قد تمشَّينا كثيرًا قبل أن نستقر على العشاء في «شابمان»، الباخرة-المطعم. تناقشنا بكلمات لطيفة عن كل شيء ولا شيء. في المطعم جعلَتني ثمالة الجعة المخلوطة بثمالة خمرة «السنابس» أتذوَّق بشكل أفضل ذلك السمورجاس بالزبدة، وذلك الخبز الصافي المسمَّى «فازا سيزام»، فحتى لو كانت هذه الصوتيات بالية فإنها ستمنحُني لذةً فائضة.

طلبنا بعد ذلك طبقَين من «سترندبرج» أخَذا اسم الكاتب السويدي المشهور، وهو طبق مكوَّن من شريحة عِجل رقيقة على طريقة ميلانو، وبطاطس مطبوخة في الفرن، وورقتَي جلبان وحبة طماطم واحدة، دفع صغرها لينا إلى القول:

«سنأكُل الكاتب كله». رددتُ قائلًا: «سنَنهشُه برواياته ومسرحه وأشعاره ولوحاته، وربما بـ ...» أمسكتُ نفسي وبلعتُ كلمة «نسائه». خمَّنَت لينا ما أردتُ قوله. أبعدَتني عنها ببرودة وحدَّثتني عن ماضيها وكأنها بذلك تَسبق خيالي. هل كان ذلك خرافة أم حكاية حوريات شتوية؟ لن أعرف ذلك أبدًا.

– تصوَّر أنني وحيدة أسرتي. تربَّيت قرب كنيسة القرية في سكانيا.

أجبتها وقد استبدَّ بي الخمر: أنتِ عرَّافة وثنية حقيقية.

– العرافات هنَّ بالأحرى جداتي من أبي اللواتي ربينَني. لقد قفزت على جيل بأكمله. كنَّ يَعِشن على شكل طائفة، يغزلن الصوف ويَعملن في الحديقة ويشربن الخمرة خالصة خلال الليلة الشمسية، وفي أحد الأيام اختفَين، كان قد اختطفهن طائر من طيور الثلج.

وفيما كنت أنصتُ إليها وهي تحكي حياتها الخرافية على شاكلة أسطورة عتيقة، كان ذهني يضج بتلك الملاحم الشمالية التي تغير فيها الكائنات والأشياء، من مظهرها فجاةً،

تتمطَّط أو تنكمش بين السماء والأرض كي تتبخَّر أخيرًا في موت وحشي، هناك حيث لم يكن في مقدرة العقل الغريب لذاك الوقت أن يَصِل! هذه الشطحات تعجُّ بقساوة قاتلة أكون معها الآن مدفوعًا إلى أن أخمن إلى أيِّ حد هو مسكون هذا الصمت المرهف والهادئ لهذا الشعب، بالنفي الشجي للحياة. كانت لينا بسخريتها ووحشيتها تُمثل ذكرى صورة أسطورية وقد أخذت ملامح امرأة طائرة، وهو ما ستقوله لي بنفسها ببداهة فائقة.

توجهنا نحو «شيبسهولمن» حيث كانت راقصة يابانية تقدم فُرجة استعراضية، وبعد أن عَبَرنا الجسر سِرنا بمحاذاة فسحة خالية من الأشجار وضيقة، مُتتبعين منعطفات تفصل بين تلَّة والبحيرة، فيما كان الأفق الصافي في الجهة الأخرى من البحيرة يبدو مُهاجرًا من مرتفع إلى آخر. كان الطريق المؤدي إلى قاعة العرض يمر من مركز خاصٍّ بالكُتاب الذين يمرون بالمدينة أو بأولئك الذين يعيشون قطيعة عاطفية.

أثار فضولي مبنى ذاك المركز المُشرف على ضفة البحيرة كأنه ينزلق نحو مويجاتها. مركز يبدو وكأنه كان قد بُني بوحيٍ سحر لوثري خاص جمده الزمن. وفي لحظة خاطفة أحسست بالحلم اليقظ لهؤلاء الكُتاب الذين شكَّل صمتهم الليلي ذاك، لأجل عملي الثمل، مكتبة جسدية وذاكرة حية صيغت لتوها في هذا المأوى المُلغز. هناك درج من الخشب الصقيل الذي صبغته أو صقلته محنة مورقة، يؤدي إلى الباب الذي تحف به مجموعة صناديق الرسائل. أما أغلفة الكتب فيبدو أن صانعها هنا مجلد حالم يذكرني بالأدب الغابوي الذي يشكل مجالًا خصبًا للساغات الشتوية وظهور الأشباح. لهذا كانت رائحة السندر (التي ملأت خياسيمي في أول إقامة لي في السويد) تترك أبدًا بصماتها على تلك المخطوطات المفتوحة باتجاه الأجيال المقبلة.

وأنا أنسج هذا على عبير الكلمات، أفكر أيضًا في راقصة هذه الأمسية وفي التواءاتها العجيبة. نزعنا أحذيتنا قبل أن نأخذ مكاننا على بساطٍ من قصب، بينما كانت الموسيقى قد بدأت عزفها، مساعدة إياي على فك عقدة سير حذائي وإرخاء أعصابي وثمالتي. أنغام عنيفة تارة وهادئة أخرى. لكن لا الهدوء ولا الحدة كانا هنا يَحملان اسمًا مميزًا إلا تلك الحركات الرشيقة التي رسمتها خطى الراقصة. كانت من الرقة بحيث نخالها تخطو على تُويج زهرة دون أن ترتعش أبدًا.

قدمت الراقصة تحياتها الطقوسية لربة النور ورسمت في الهواء ولأعيُن النظارة رسمًا خطيًّا يابانيًّا: مو. ونحن نُصغي السمع لتلك الموسيقى اليابانية المُتداخلة بتلك الخطى،

كنا مدفوعين إلى توزيع نظراتنا المتسائلة على فضاء شبه عار، مزين بعلامات ناصعة: هنا تُوجد ساعة هرمية كبيرة موضوعة على الردهة؛ وهناك لوحة ممدودة ومُرتكزة في أسفلها على عماد خشبي.

بعد قليل ستُضاء الستارة حتى تمنح المجال لظهور لعبة ظلال يَنطبع من خلالها جسد الراقصة على شكل نيجاتيف وعبر تموُّجات سرية. ظلال ستَبقى للحظة وبدون حركة، كما لو كانت توقف الزمن وتركز صورتها على شاشة عين مُصوِّر حالمة.

لا وجود للإيماء. ليس غير ملامح الحركة وصورتها. ليس هناك مِن تعقيد نافل، فقط آثار عاطفية على لوحة من العرض. كان الجسد محاطًا عن قُرب بإطار محدَّد؛ إنه حرية تشكيلية ورياضية حتى ضفاف الرغبة والمُتعة. من ثم انحلَّ الكيمونو الحريري لذاته على أهداب الجسد بفنٍّ شهوانيٍّ. وعلى الكيمونو ظهرت صورة تنِّين، ثم ثانية، تنين يصارع روح الرقص الصانعة للمعجزات.

هل نسيت وجود لينا؟ كانت تضع رأسها على هذا الفخذ أو ذاك مسايرة تنوعات هيبة أبدية. همهمت في أذني ولمرات عديدة كلمات غير مفهومة. بعد العرض تركت لي بسرعة رقم هاتفها وغابت في ظلمة الليل. مرَّ كلُّ شيء بسرعة. ولكي أخفِّف من ثمالتي قمت بجولة طويلة، عاهدًا بلا مُبالاتي المتوحِّدة إلى هذا الصيف الجميل.

ما كدتُ أدخُل غرفة الفندق حتى رن جرس التلفون. كان قد مر على منتصف الليل نصف ساعة. فكرت قليلًا قبل الإجابة. فأنا حين أرفع السماعة لا أقول أبدًا: آلو! على الآخر أن يقولها لي. كانت دونيز حزينة ومُرتبكة. سألتني للتوِّ: وستوكهولم؟

– فاتنة وعجيبة.

– وغرفتك؟

– تطلُّ على الجزء الآخر من القارة.

كنت قد قررتُ الإجابة بنوع من الوقاحة. وسواء أكانت تلك الوقاحة حقيقية أم مُفتعلة فقد كان يشوبها المرح والشاعرية. غير أن دونيز لم تتركني أتمادى في غمغمتي وحديثي مع النجوم. فقد كانت هي أيضًا نجمة من بين النجوم، ألحَّت قائلة:

– اسمع ... النوم لا يأتيني. أنا أناديك، هل أنت بخير؟ قل لي. أحس بنفسك. أنت مخمور. غائب عن وعيك. شربت السنابس.

كذبت بمرح:

– السنابس؟ يا له من هذر يا عزيزتي، أنا في فترة نسك، ففي الوقت الذي كانت فيه الخمرة متوفرة، كنت أَحرم منها نفسي بعض الشيء.

لكن دونيز أوقفت هذا الارتجال الفج.

– اسمع.

– نعم دونيز. سنة للتفكير، هذا أجل لا يخلو من قساوة. لديَّ فكرة لصالحك: ابحثي لك عن عشيق!

أجابت بجفاء:

– هذا شيء لا يَعنيك يا وغد.

– لكنك لا تتركين لي الفرصة للابتعاد، وربما للعودة أيضًا.

كادت دونيز أن تُجهش بالبكاء. كان كل شيء قد ادلهمَّ فيما غرقت باريس في ليلٍ حالك دون أن تتعود هي على هذا الفراق. في النهار تشتغل بشكلٍ آليٍّ في المتجر. وبدون نتيجة تُذكر. يدخل الزبائن ويخرجون خاوين الأيدي. يرن الجرس بشكل آلي. والباب يبدو وكأنه يدور في زمن سائب. تَجلِس إلى مكتبها وتَحسب إلى الآخر الفاتورات وقصاصات السلف. وتُعيد بين الفينة والأخرى ترتيب أوراقها. من الأفضل تعذيب الأوراق كما عذَّب قلبها الجريح. حين تعود للبيت باكرًا تهتمُّ بالصغير وتسهر على نومه بحكايات مُرتَّقة تدور أحداثها في بلدٍ بدون اسم أو في صحراء بدون أفق! حكايات على شفا الموت. وينام الصغير مذهولًا.

– لكن ما بك يا دونيز؟ تكلَّمي. أعاهدك أني سأكون إنسانًا وفيًّا. أنتِ تعرفين أن صيفي ليس مُبرمجًا كلية، فأنا أعتزم التجول في البلد، وربما أصل حتى فنلندا مرورًا بلابونيا.

أحسستُ أنها تُصارع بأنفة، إن لم يكن بكبرياء، الألم الذي يَنخرها. تمامًا كما الرباط عهدتها. هل كان بمُستطاعي في تلك اللحظات التخفيف من كبريائها ومِن دموعها وتحديها المشاكس للزمن؟!

بعد أن تلاشى اضطرابي حدثتها بهدوء. أجابتني بنيَّة السِّلم نفسها، لكنها كانت نية زائفة. فقد فاجأت في قعر صوتها ارتيابًا يَشي بحنينٍ عارم. كل شيء كان يُنهكها، الزمن المنساب والزمن المعاند. فحين يتمُّ رسم أجل لزمن الحب بهذا الشكل، أيكون ذلك محتملًا عندما يُبدد النسيان الذكريات؟ آه كم كنت أتمنى أن نحافظ على نواة وحدتنا، ونقتسم ما

لا يُقتسم إلى أن يُعمينا الذهول المطلق! لا ترمِ بنفسك في الهاوية. راقبي نار الحنين ورمادَه وشياطينه الغافية. تخلصي من الضغينة وكوني كائنًا ذا إيقاع وصوت، صوتًا حقيقيًّا. بدءًا من هذه اللحظة، لم أعد أعرف من يتكلَّم مكان الآخر. كلام مرتج، مطوَّح في الليل، أيادي مُترابطة، مُقيَّدة. أسرعتُ بإنهاء الحديث.

– دونيز. لنُوقف الخسائر. عِمي مساءً!

أجابت دونيز بخفوت، تاركة صوتها يهرب منها وهي تُتمتم. هل كانت حقيقية أم مُفتعلة هذه الرعشة في صوت ألفته؟ كنتُ أعجب فيها بهذا الارتباك المزوج بالصمت والصراخ القابل لأن يُحوِّل السخف بمُعجزة إلى قوة حب. ثم انسحبَت داخل نومها البعيد. هناك في كوكب الأحلام حيث الوحدة في توازُن دائم، دخلت في نوم عميق. وأنا الغافي في الطرف الآخر من الخط، المغلَّف بنبرة صوت صامتة، نهضت صورتي المُثقلة بالنوم في المرآة. وبمجرد ما تلاشت الصورة عاد بي فكري إلى ماجريات اليوم. تصوَّرت لينا تدلف داخل بيتها، تصعد الدرج، تفتح الباب، تعبر البهو لتمنح نفسها بوقارٍ للنوم في تلك الشقة التي تُطل، كما أكَّدَت بنفسها، على جانب من الحديقة.

مهما طال هذا الفصل التعليمي من حياتي فإني واثق من حماسي وتفانيَّ.

وهي حماسة خمدت بعض الشيء خلال مدة المناظرة التي كنتُ أقوم بمتابعتها كمترجم. كانت حالاتي النفسية قد غدت إلى حدٍّ ما معلقة. خُضت في مهمتي وأنا أتظاهر بأني في حالة سِلم مع نفسي. كان ذلك سكونًا مليئًا بالمفارقات. لكن كيف الترويح عن ضعف القلب بغير العمل؟

الفضاء الحد

في الغد، دخلتُ قاعة المحاضرات قبل افتتاح المناظرة، التي تتمُّ أشغالها في فندق فخم. كانت القاعة فارغة. وحين أخذتُ مكاني داخل المقصورة الزجاجية تأكَّدت من سلامة الأدوات التقنية المخصَّصة لي، الميكروفون والسماعة والأزرار. راقبَتِ المقصورة الثانية في غيبة زميلتي ومُجاورتي في المقصورة هيلين مور، ثم غُصتُ بنظري في المشهد بكامله.

في تلك اللحظات الصباحية، كان المنظور الذي انطلقَ منه ثم الذي سيُؤطر نظرتي كمترجم خلال يومين، مصفى بظلٍّ ذي أشعة مشوبة بنزر من اللاواقعية. كان ذلك وهمًا عابرًا، أثرًا لا شكَّ فيه من آثار ليلة أمس، مما اضطرَّني إلى ضبط نفسي ورسم برنامج اليوم ومدَّته السردية داخل ذهني.

كانت النوافذ تُطل على البحيرة. فتحت واحدة. مِن الشارع تصلني همهمة باردة كصوتٍ مكسوٍّ بندف الثلج. بهذه الحركة البسيطة؛ أعني بفتح نافذة باتجاه مدينة ملغزة، نلمس تنظيمًا جديدًا ومتحركًا للفضاء. فالنافذة تُصفي الضوء الذي يحملنا وينحتنا. حين تكون نافذة ما مفتوحة فإنها تحجب الحياة، وحين تكون مُغلَقة ترمي بها بعيدًا في غور أبعاد جديدة.

هذه التمارين الطقوسية كثيرًا ما تُهدئ من روعي. ربما كانت تجعل من إقامتي في المقصورة، وراء الزجاج، أكثر احتمالًا. ذلك أن الزجاج يشكل بالنسبة لي خطرًا شبحيًّا من الشفافية. ألم تصدمني سيارة؟! وأنا فاقد لوعيي على الزجاجة الأمامية للسيارة كنت فيما تبقَّى لي من وعيٍ أحادث شرطيَّ المرور. التحقَت بي هيلين قبل نصف ساعة من بداية الجلسة الأولى. كان لنا الوقت لتقسيم المهام وبرمجتها فقط. وها هي جنبي يَغمرها الشحوب. هل فاجأت أو خمَّنت سرَّ ضيفها؟ حين حدقتُ فيها بحنان، رأيتها بغتةً تستعيد لغتها وهي تتكلَّم. بدأت حمرة طفيفة تغزو وجهها بجماله العادي لكنه لطيف الرؤية ناعم

الملمس. وجه مثلَّث، ذو ملامح مُتناسقة، ويبدو من وراء حجاب الخجل منحوتًا بالإرادة والعزم.

هيلين، بالنسبة للعارفين تملك موهبة عبقرية في اللغات. وكنا قد غطَّينا معًا العديد من الاجتماعات في بلدان مختلفة، عقيدتنا في ذلك هي النجاح في مهمَّتنا. لكن هذا الشغل المشترك يخضع، وبشكلٍ غامض، لفنِّ الارتجاج. كان كل واحد منَّا يستفز بدوره الآخر. وشيئًا فشيئًا، لاحظنا أننا، ونحن نكتشف أغوار علاقتنا العاشقة، كنَّا وجهًا لوجه مع وحدتنا المتواطئة. في سنغفورة، تَضاجعنا بلامبالاة خارقة. كانت تلك هي المرة الوحيدة التي نتضاجَع فيها. في ستوكهولم. جددت هيلين دعوتها. لكني في غمرة افتتاني بلينا لم أُجبها لذلك. بدَت لي حزينة من غير ضغينة. ظللنا طيلة المناظرة جنبًا إلى جنب، كما لو أن أي شيء لم يُعكر صفو تعاوننا. وفور انتهاء الجلسة ستغادر هيلين القاعة.

كان كلٌّ منا في مقصورته ينتظر. دخل المشاركون جماعة، وأخذوا مقاعدهم التي تحمل أسماءهم. بدت لي القاعة واقعة تحت ضوء مُتغيِّر وهي توزع المشاركين حول المائدة المستديرة.

بدأت الندوة في الوقت المحدَّد تمامًا، وبدون أي تأخير. توجه رئيس الجلسة، الأسترالي، إلى جمهور القاعة قائلًا:

– إنه لشرف عظيم لي ولبلدي أن أترأس هذه الجلسات الدائرة حول موضوع: «الحياد والاستراتيجية العالمية». هذه الجلسات سيتمُّ توثيقها من طرف مقررنا الرسمي، والتنسيق فيما بينها من طرف الكاتب العام الذي أبى إلا أن يترك مسئولياته الضخمة ليُخصص لنا يومين مُثقلين من وقته.

أما البرنامج الذي بين أيديكم فسيتمُّ اتباعه حرفيًّا وحسب التتابُع المسطر فيه.

وأضاف الرئيس:

– ولتسمحوا لي الآن أن أعطي الكلمة للبروفسور ... من جامعة لوند.

وأخذ البروفسور ... الكلمة:

– قال همارسكيولد: «لا أحد يظلُّ محايدًا أكثر من الوقت الذي يسمح له به جاره.» لقد استشهدت بهذه القولة قبل أن أعرض عليكم المبادئ التي تفهم خلالها السويد حيادها بكل أبعاده، وحتى لا تكون مقدمة تدخُّلي هذا استطرادًا تاريخيًّا، سأذكر فقط بأن أصل «الحياد المسلَّح» ظهر في منشور للملكة كريسين يعود لسنة ١٦٥٨م.

لنُناقش الآن هذه المبادئ. وقبل أن أتطرق إليها نقطة نقطة اسمحوا لي أن أعبر لكم عن انطباع شخصي، فمفهوم الحياد هذا عسير على الحصر، بل إنه أحيانًا يكون غير مفهوم ومُستوعَب من طرف السويديين أنفسهم فبالأحرى من طرف جيراننا.

إنَّ الخطر يكمن بالأحرى في الاعتقاد بأنه من المستحيل جعل هذا المفهوم واقعًا عينيًّا وأنا أشدد هنا على كلمة من المستحيل. إننا نَقترح عليكم بوضوح أن مبدأ الحياد مبدأ واقعي يمتلك مزايا برنامجية: من ثم، فهو ممكن.

النقطة الأولى ذات طابع موضوعي: إنها تتوقَّف على إرادتنا المشتركة في الحياة نحن بني البشر. فالحياد هو الغاية التصورية لكل حرب. إنه يرتبط بضرورة نزع السلاح، سواء تعلق الأمر بأسلحة تقليدية أو حديثة أو مجهولة.

ونحن نتساءل: هل هذه الأولوية الممنوحة للسلام قابلة للتطبيق الفعلي؟ نعم ولا. نعم، لأن السويد ظلَّ بعيدًا عن كل نزاع. ولا، لأننا نسعى، بهذه الصورة أو تلك، إلى شل قدراتنا على الحياد. ونحن نتمناها، وأكثر من أيِّ وقتٍ مضى، قدرات فعالة.

بدأت المُناظرة أشغالها في جوٍّ من وضوح الفكر. غدَت مهمَّتي شفافة. وأنا الذي يقوم بالترجمة الفورية ويُنصت ويتكلَّم بفارق زمني بسيط بينهما، كنت أتعود بسرعة على موقعي كلاقط للكلمات، إلا أني لاقط يلزمه أن يظلَّ مختفيًا عن الأنظار. وإنه لشيء عزيز عليَّ أن أحافظ لسر المهنة على كرامته حتى في الأوقات التي أكبت فيها رغباتي المفضَّلة. إذ يلزمني أن أكون محايدًا من ناحيتين: لأجل سياسة الحياد ولأجل نفسي. استراتيجيتي في ذلك ألا أنقل شيئًا في كلمات غير صريحة، فكل شيء ينبغي أن يتم في شفافية الكلمات، نعم، نعم يحدث أن أرتجل أحيانًا. إلا أنه ارتجال يتم تحت المراقبة، بينما ينزلق صوتي بين تنويعات التدخُّلات. أما الحِفاظ على نفس النبرة والإيقاع والابتكار الصوتي، فتلك قاعدتي الذهبية، يحدث أيضًا أن يقوم المحاضر بفلتة لسان. وعليَّ أن أُصحِّح وأقوِّم كي أحكم التسديد. عليَّ دائمًا إعادة المتكلِّم إلى رشد اللغة عبر التخفيف من تكرار الأخطاء، الأخطاء تتناسل، وتكون أحيانًا سخيفة، وأحيانًا أخرى مُدهشة أو غير قابلة للاستدراك. يَحدث لي أيضًا أن أترجم «همسًا»، بقواعد مرنة وبحميمية مُطلقة الافتعال. إن أهمية المفتعل تكمن في كونه يغدو حقيقيًّا وأصيلًا. والنبرة الصوتية للمُتدخل؟ أنطقها حسب ذوقي. فأنا أكون أنا والآخر ثم أنا، تباعًا؛ محبوسًا بين السرعة والكلام. والسرعة والصمت. وبمجرَّد ما انفعل أهدِّئ نفسي. أعود بنظري إلى الحضور، راميًا بنظرة مُختلسة عبر النافذة. وغالبًا ما أكون مضطرًّا إلى أن ألقيَ بنظرة واحدة ألفُّ بها الحضور بكامِله. فأنا هنا خلف

الزجاج للالتقاط والاستشراف وإدراك معاني الكلمة أو الجُملة أو الجناس بمجملها. كل المعاني، سواء كانت واضحة أم غامضة، جناسات معقولة ومعقَّدة أم ضبابية، محمَّلة بأفكار وضَّاءة أم بالهذر والبلاهة والصرامة الزائفة التي لا تُحتمل؛ فهنالك مواقع كثيرة مُتأرجِحة في توازن اللغات. وكلَّما تسارعت وتيرة الترجمة قرأت الواضح والمخبوء في جسد المتدخلين كما لو كان ذاك الجسد المتعدِّد الأشكال كتابًا مسجلًا على أشرطة وضاءة. إنها سرعة تقودُني إلى أبعد مما تقودني إليه قُدرتي الخاصة على ترجمة كل شيء خلال الجلسة ... يا لها من تجربة مُدهشة! إنها تُرخم من نبرة صوتي ومن إيقاعي التركيبي وتُلطِّف من مويجاتي الحسية، أنا الموجود وراء الزجاج، أراقب شفافية الكلمات من نفسي إلى نفسي، من الآخر إلى نفسي ومن نفسي إلى زميلتي. أسجِّل كل لفظة وكل جملة مُكتملة كانت أو ناقصة، مستشرفًا تطوُّرها ومانحًا إياها نسغ القوة إن كان هذا النسغ موجودًا. الأمر يتعلق بالأحرى بلغة موحَّدة؛ فعليَّ سماع الإنجليزية أو الألمانية والترجمة إلى الفرنسية، لغتي الأصلية. في الداخل، تسكُنني أذنٌ هائلة. تدفعني مع الزمن إلى المرونة. فما يصلني، وبفارق زمني طفيف، لا يلزم أن يكون مشحونًا أكثر من اللازم، وإنما قريبًا من قُدرتي على السماع الحق والأكثر موهبة. بالرغم من ذلك يبقى في تقعُّرات أذني بعض الصرير والأزيز المزعج الشبيه بالصوت الغائر لكلمة منسية. فخلال الجلسة، أقوم بموازنة تتابع الكلمات على شاكلة آلة موسيقية.

كان البروفسور ... من جامعة لوند يتحدَّث ببرودة. وبدا أن ضيقًا عامًّا يرفرف في أجواء القاعة. قد يكون ذاك الضيق نابعًا من كدري العاطفي. فكَّرت لبرهة في لينا، ثم اغمضت عيني واستعدت قُواي العقلية. تناول الرئيس جرعة ماء. وأشعل جاره سيجارة كي يتبعه الآخرون في ذلك. كانت المائدة المستديرة، منظورًا إليها من مقصورتي، تبدو وكأنها تدور مع الدخان. نافذتان كانتا مفتوحتَين. نهض الرئيس وفتح ثالثة. أما وكأنها تدور مع البروفسور، فقد تابع عرضه دون أدنى انزعاج:

– نحن نطرح على أنفسنا أيضًا هذا التساؤل: كيف المكوث خارج النزاعات وسيناريوهات الاستراتيجية؟ إن إجابتنا لا لبس فيها: بفضل التبصر. وأنا أشدِّد على الكلمة التي نعتبرها جوهرية بالنسبة للعقل المنطقي والتأملي للاستراتيجية. تقول السياسة: «ليكن حذر الثعابين»، وتضيف الحكمة (كشرط حصري) «وبساطة اليمام». هكذا تحدَّث عمانويل كانط وهو المنافح الأكبر عن السلم الأبدي.

إننا نُميز، حسب وجهة نظرنا، بين درجتين من الحياد: السِّلم الشامل (وهو ما يُشكل مثَلَنا الأعلى) والحياد الملتزم قولًا وفعلًا. وهذا النوع الأخير يتمُّ الدفاع عنه أكثر من طرف بعض الأحزاب النسوية والفلاحية. إنني الآن لا أنتقِد، أحلل فقط. فنحن نحترم وجهات النظر كلها.

أما استراتيجية الحياد المسلَّح فتُشكِّل النقطة الثانية في حديثنا. إنها تفترض شرطَين أساسيَّين: نحن لا نهاجم لكننا لا نرغب في أن نكون عرضة لهجوم مباغت. نحن ضد استعباد أو اضطهاد شعبٍ من طرف آخر. فمنذ زمن طويل لم نُعلن حربًا ولم نستعمرَّ بلدًا. لهذا نحن نتفهَّم جيدًا رغبة بلد ما في الانعتاق من وطأة الاستعمار وإرادته في التحرُّر وأخذ مكانه ضمن محور الهوية الوطنية: أعني الفضاء والزمن واللغة والاقتصاد والتقنية والأخلاق. هذا المحور هو المحور الذي يُوجهنا. فهل سيكون نظام السويد محطَّ تقليد الآخَرين أم أننا نحن الذين سنقوم بتقليد الآخَرين؟

لنتصوَّر، سيداتي وسادتي، هذا السيناريو العسكري. ولنفترض أن بلدًا جارًا أو بعيدًا أراد مهاجمتنا. يلزم هذا البلد، حسب نظامنا، أن يُخبرنا بإشارات نحن مُستعدون دومًا لتلقِّيها وإرسال إشارات جوابية لتفادي أي حرب. فهل موقفُنا غامض وعبثي؟ يُجيب بعض الملاحظين الفَطِنين بالإيجاب، لكنَّنا نعتبر أن الاستراتيجية تنبع من نظريات التواصل. فما هي نظريتنا نحن في التواصُل؟ نحن نترجم نمطنا في الدفاع عبر الردع الضمني للآخرين ولأنفسنا، وفي الحالين معًا، نحافظ على حياد مسلح، بوازع وفاء لنظامنا الأخلاقي.

هذا الردع إذن تقني وأخلاقي. فنحن نعتبر أن لكل بلد الحق في استقبال إمكانياته، ومن ضمنها إمكانيات الدفاع عن نفسه في حالة التعرُّض للعدوان. فهذا يفترض ذاك، ولكي يتم تفادي النزاع فمن اللازم الحفاظ على المصداقية، أعني المصداقية في أعين أولئك الذين ليسوا بمُحايدين أبدًا (وهم أغلبية) والذين يُبدون حيادهم إلى هذا الحد أو ذاك. إنَّ المسألة هنا مسألة رؤية وتبصر. فهل يكون ذلك حلقة مفرغة؟

إن التمييز بين الشك والمصداقية هو ضمانة أخلاقياتنا. وتلك هي النقطة الثالثة. فمن اللازم الإيمان بمصداقيتنا. لماذا؟ لأنَّ السويد بفضل ذاك الإيمان الذي يُبرهن عليه حيادنا، استطاع تفادي فاجعة حربين عالميتَين. و«التفادي» يعني هنا ربح السِّلم بالسلم في باقي أوروبا.

إنَّ رِبح حرب بدون اللجوء إلى خوضها هو الحكمة المثلى. فهل بإمكان الاستراتيجية الخضوع إلى الحكمة؟ أم إنها فقط توظيف لجنون الناس وغريزتهم العدوانية، تقوم به الأرواح الشيطانية؟

هذا النوع من الاستراتيجية يُشكِّل نظرية خطيرة للعبة؛ إنها تُفقر وتذل، تهدم وتزرع الموت. وإذن فإن نظريتنا بيضاء، فهي تدخل اللعبة فقط لإقامة السلم المؤقت والدائم. باختصار إن استراتيجيتنا محايدة.

هذه هي النقطة الرابعة التي يصعب إيصالها إلى جنوب أوروبا. لنتأمَّل لحظة في مصير العالم وأمنه. الأرض تتفقر والبحر يتلوث والسماء أصبحت غاصَّة ومُثقلة بالآليات. أستحلفكم أن تقولوا لي ما الذي سيبقى من ورقة العُشب ومن النشيد الملائكي للعصافير؟

في تلك اللحظة توقَّف البروفسور عن الاستمرار. ألقى بنظرة على الحاضرين وباتجاه الرئيس الذي كان يهشُّ برأسه، ثم تابَع بهدوء محرج:

– يقول الحقوقيون وعن حق: القانون خيال صنعه المؤسِّسون. لقد أثبت القانون السويدي الحياد، إلا أنَّ هذا الحياد لا تنصُّ عليه القوانين الأساسية. هل هو شذوذ بيِّن؟ قد يكون ذلك أيضًا ضربًا من اللامعنى. فما معنى أن نكون مُحايدين من غير أن نكون ملزمين بمعاهدة دولية؟

كل هذه الأسئلة توجد في مقدمة اهتمام المجموعة العالمية. ذلك أننا إذا نحن وقَّعنا معاهدة مع هذه القوة أو تلك، صغيرة كانت أو كبرى أو مُتوسِّطة، فإننا سنغدو ملزمين بالاهتمام بالنزاعات مع أطراف أخرى. وهذا شيء لا يُهمنا أبدًا.

نحن نضبط نفسنا. وهذا كافٍ لإثبات مصداقيتنا لدى الآخَرين. فالبلد الذي لا يضبط نفسه ولا يدجن قواه اللاعقلانية قد يخضع بسرعة للردع، من طرف الآخرين. إن بلدًا يعيش في الحياد يملك طريقة خاصة في موازنة عنفه.

هذه النقطة لها حمولة دلالية كبرى. فالاستراتيجية التي تذيب بلدًا جارًا أو صديقًا في جغرافية سياسية للتوسع، تكون خطرًا على العالم. إنها تمنح لنفسها حق مراقبة بلد معيَّن وسكانه وحياته الطبيعية.

وبصيغة أكثر صراحة، هناك الحرب والسلم، والحياد هو الاختيار الثالث، ومن الأكيد أن السلم نقيض للحرب. أما نحن فنريد التفكير فيما يُؤسِّس السِّلم النهائي للحق الطبيعي.

قد نكون موضوعًا لسخرية البعض، فيم سيُؤكد لنا آخرون: «لكن الحياد نوع من الشلل». ونحن نُجيب بأن الحياد ليس مرضًا وإنما هو لصيق سلامة العقل نفسها. وإذن فإن العقل معنا إلى حدٍّ ما. ويقوم آخرون أكثر دهاء بانتقادنا بخصوص الجمعية السويدية الدولية للتطور: السيدا ونحن نُسمي الآن هذه المنظَّمة المختصة في إعانة العالم الثالث بالسادي؛ لأننا بدلنا من مواقع الحروف البدئية للشعار كي لا نُثير حفيظة أحد.

في هذه اللحظة بالذات، لا أدري أية صدفة جعلت امرأةً بالغة الأناقة تلجُ القاعة فجأة. استدار نحوها كل الحضور. نزعت سماعتي وفتحت باب المقصورة، ثم عمَّ الصمت. تقدمت المرأة الغربية بتؤَدة بالغة، ثم حدَّقت فينا وأطلقت قهقهة لتعود أدراجها مُطقطقة بكعب حذائها. ثم دخلت امرأة أخرى عادَت لتوِّها دون أن ترفع رأسها. ما الذي حدث؟ لا جواب. ابتسم الرئيس، وبحركة من يده دعا المُتدخل إلى متابعة كلامه. وبعد صمتٍ حائر تابع البروفسور قائلًا:

– سادتي سيداتي، لكم الحق الكامل في سؤالنا: ما الذي تُريدون بالضبط؟ هل يتعلق الأمر بنزع السلاح تدريجيًّا إلى أن نصلَ إلى العدو الأكثر خطورة؟ أم إن الأمر يتعلَّق فقط بحماية أنفسكم من كل أنواع الحروب؟

ذلك هو التخوُّف الذي نبلغه إلى العالم منذ إقامة سِلمنا الخاص منذ قرنَين تقريبًا. إنها رسالة موجهة إلى العالم. وتُشكِّل سيميولوجيا الإرسال والتلقِّي فصلًا خاصًّا من علاقاتنا الدولية. فالسلم الداخلي والخارجي مترابطان ومتعاضدان، فهما يُشكلان بِنيةً واحدة في السياسة والاقتصاد والثقافة.

أما عن السلم في الداخل، فنحن محظوظون لأننا خلَّصنا السويد من آفة البطالة والتفكُّك الاجتماعي والثقافي، ومن الفوضى المُعادية للبيئة التي تسُود بين الأرض والماء وصفاء الهواء، ولتسمحوا لي أخيرًا هنا بذكرى قديمة، خلَّصنا السويد أيضًا من انجراف القارات.

حصل حادثٌ جديد. كادت هيلين تضجُّ من الضحك. كانت عيناها مغرورقتَين بدموع المرح. أشارت بأصبعها نحو مدخل القاعة. مشهد لا يُصدق: عارضات أزياء كنَّ يتتالَين في صمتٍ مُتوجهات نحو باب الخروج في عمق القاعة: تنُّورات فساتين بأكتاف اصطناعية أو تنُّورات مفتوحة. عدد وفير من الألوان المختلفة. أصباغ زرقاء ووردية خفيفة. فتنة! حين نهَض الرئيس كان كلُّ مَن في القاعة قد وقف. ثم عمَّت الضوضاء. فهمت فيما بعد أن خطأً لحق لوحة الإعلانات في بهو الفندق. ففي الطابق السفلي، بدأ في نفس اليوم مؤتمر لعارضات الأزياء الاسكندنافيات.

بدت لي تلك الفرجة غير المرتقبة، في البداية، غير قابلة للتصديق. غير أنَّ أحلامي لم تتوانَ في التكفُّل بها؛ فتلك المخلوقات التي كانت تتمشَّى برشاقة وأناقة رائعتين كانت بالنسبة لي طوافًا مقدسًا متشكلًا من المجازات الحية. ما فتنني في ذلك هو مشيتهنَّ ذات

الإيقاع الموسيقي والحركة الشبقة التي تقترحها على العين. أليس هياج الجسد وتنميقاته هي المبدأ السحري للموضة!

تركني الافتتان بتلك الكائنات السحرية منهوك القوى. كانت هيلين هادئة وعلى شفتَيها بسمة ساخرة. وبفضلها هي استطعتُ العودة للتركيز على عملي. تنقَّل الرئيس داخل القاعة، وبخفَّة أغلق كل الأبواب وأشار على المتدخِّل بمتابعة كلامه. غيَّر هذا الأخير لجلجته وتابع: اسمحوا لي أن أخاطبكم ببساطة وتفاهُم. حين تندلع الحرب بين الآخَرين يلزمنا عدم الدخول فيها إلى جانب أحد الأطراف المتحاربة. وفي زمن السلم علينا عدم الدخول في تعاقُد أو معاهدة دولية أو التزام مُعترَف به عالميًّا.

إني أثير انتباهكم هنا إلى استقلال الطرف الثالث. فعلى أبوابنا توجد جدلية الحدود (الجانب السوفياتي) واستراتيجية التذويب (الجانب الأمريكي). وبما أن جزءًا كبيرًا من أوروبا يتَّجه أكثر فأكثر نحو مركزه الذاتي، فنحن نرغب في فهم هذا الفكر الدائري، فِكر الحصار. لماذا نُثير هنا صورة الدائرة؟ لم لا نتَّجه نحو الراحة الإيكولوجية بين الماء والأرض؟ لقد كان أجدادنا محاربين أشداء، ولم تكن آلهتُنا أقلَّ منهم صلابة. وقد ولى زمن حرب الآلهة والأجداد، أما السِّلم الدائم فعلينا نحن تشييده.

إنَّ الفرد في السويد مُحايد بالقوة، وصامت بالفعل، فهل هذا الصمت غير قابل للفهم؟ كل كائن له ملَكة الذكاء السياسي يعلم أن للحياد حدوده. فهل هي حدود غير قابلة للتجاوز؟ هل نتجاوزها؟ بالتأكيد، لكن كيف؟

إنَّ بلدًا محايدًا يتفادى أيَّ تحالف في السر والعلن؛ ذلك أن معاهدة مقامة في زمن السلم تسري صلاحيتها على زمن الحرب، بشكلٍ مباشر أو غير مباشر. فهل يكون ممكنًا ألا توقع في معاهداتنا واتفاقياتنا على غير السلام الأبدي؟ وما ستكون هذه الاتفاقية؟ مهما كان الأمر، فهوامش القانون الدولي ضيقة جدًّا. ونحن نريد أن تكون تلك الهوامش والحدود وذلك التحييد بعيدًا عن مشاكل الساحة العالمية، جنبًا إلى جنبٍ مع فوضاها.

لكن بالرغم من ذلك، فهذا الدفاع المسلَّح يفترض امتلاك موارد خاصة ضرورية لحياد البلد، كل البلد. وهذه الموارد معروفة، بل وقابلة للمعرفة والكشف. هنالك موارد مادية ومعرفية خفية. والمشكل في التقدير والقياس، أي معرفة مقدار ثِقة هؤلاء وأولئك حتى لا يجرَّنا أي واحد أبدًا إلى أيِّ حرب، وحتى لا نسقط في أي منزلق أو أي جنون تجريبي للطبيعة والمرأة والرجل والغنيِّ والفقير والبصير والأعمى.

أما المبدأ الرابع، فإنه مبدأ الاستقلال. وإرادتنا في الحياد هي وجهه الآخر، وهنا تنطرح الصيغ الكفيلة بجعله استقلالًا ملموسًا. فنحن تابعون لبلدان أخرى في مجال التقنيات

الدقيقة والمنتوجات الجاهزة، والمواد الأولية والمحروقات، والمخزونات الاحتياطية في حالة الحرب أو في حالة حفاظ على النفس تكون طويلة المدى أو قصيرته، من يدري؟ ثم إن السويد لا تعرف نموًّا ديمغرافيًّا كافيًا، وهذا توازن صحي لكنه صعب. ينبغي علينا إذن تجسيد عقلية المهاجرين الذين نقبلهم بينَنا بإرادتنا.

نحن لا نمتلك جوابًا أكيدًا عن هذه الحدود. وعلماء الاجتماع والنفس والتقنية عندنا يقومون بأبحاث متقدمة في هذه المجالات. فهل أجابوا عن مسالة تجسيد كل شيء: الحرب والسلم، الفوارق الحسية والطبقية والعائلية، والمبالغة في الاستهلاك والتلوث والفقر؟

إنَّ الأيديولوجيات تندثر، بينما الحروب تبقى. يقولون لنا: «لكن مبدأكم في الحياد انتحار!» سيداتي وسادتي، علينا أن نأخُذ وجهة نظر كهذه بعين الاعتبار. ويقولون أيضًا: «وأوروبا؟ ما الذي ستكونون عليه داخل المجموعة الأوروبية وخارجها؟ والتبادُل الحر هل يكون كافيًا لتأمين مستقبلكم؟ هل ستظلُّون آخذين وجهة الشمال لتحبسوا أنفسكم مع اللابونيين في أساطير عتيقة؟»

لا، أيها الزملاء الأعزاء. أوروبا حرة، وهي تُدافع عن الديمقراطية والحرية والاستقلال وحقوق كل رجل وامرأة وطفل عبر العالم. فهل ستستطيع أوروبا الاعتقاد في حقِّنا في الحياد، هل ستستطيع أن تُوفر لنا أمنًا حقيقيًّا في حالة تعرُّضنا للعدوان؟ إن استعمال العنف ضد الآخرين هو الخطر المُحدق بكل تجمُّع مصلحي، فأوروبا عالمٌ غدا مُتوفرًا ولو جزئيًّا على صناعة نووية، فيما نحن لسنا كذلك. هل سيتمكَّن تجمُّعنا الأوروبي للتبادل الحر أن يصبح عضوًا في المجموعة الاقتصادية الأوروبية؟ إني أطرح عليكم هذا السؤال.

هذا ما سمعت وهكذا ترجمته. تابعت المناظرة أشغالها بعد ذلك دون أيِّ عائق يذكر. كانت المناقشة هادئة وديبلوماسية، واستمرَّت بلباقة بين الحاضرين الذين يُشكلون بالتأكيد نخبة ممتازة. كل وجهة نظر تمَّ توثيقها على شريط سجلٍّ أو شريط فيديو، وكل شيء تمَّت أرشفته في نهاية المناظرة التي تمَّ ختمُها خلال حفلة كوكتيل شبه مسرحية.

كنت قد خرجت إلى الشارع، وكان الجو قد أصبح باردًا، وضباب بلوري يَغمر الشط. توجهت نحو الفندق. سيقول لي ألبرتو: «هل مملكة السويد بلد استثنائي؟ بلد بدون شعب يتمُّ انتخابه؟ من هو هذا الشعب الذي لا يختار الانتخابات ولا الطرد؟ قد تكون لفظة «الحياد» تُخفي نمط حياة خاص هو الولع بمحوِ الآثار. لكن النظافة هنا يتكلَّف بها الثلج. وحتى حين يكون الثلج وسخًا وثقيلًا فإنه يمنح للإنسان، هذا الإنسان، رغبة رائعة في الشفافية. يا له من حنين لا يصدق أن يحسَّ به المرء نفسه وقد حوَّلته الطبيعة وأشباحها القديمة، كأنه تمثال وحيد صقلَته الرياح الثلجية!

نشوة باردة

كان الجو سريع التقلُّب خلال هذا اليوم، بحيث كان من الأفضل لو أني تزوَّدتُ برداء واقٍ كي ألبسَه أو أنزعه حسب هوى الريح والشمس والمطر المُتناوبة. فجأةً صحا الجوُّ وعمَّ الضوء. هكذا اختفَت المظلات والقبعات. لكن أين يضعها الناس؟ وانتهى بي المطاف إلى التنزُّه، حاميًا جسدي بملابس داخلية من القطن.

تلك الشطحات الطقسية كانت تُلائم مزاجي، وتستجيب لنزَقي العابر، إلى درجة أني استطعت أن أدرك القيمة التعليمية للسفر على حقيقتها. فالفضاء والزمن تقيسهما ساعتنا الداخلية.

في ذلك اليوم، وفي مُنتصف النهار بالضبط، غمرت المدينة شمس حارقة وقاسية. وتمزَّق نسيج خفيف من الغيوم ليُثري بنَبرة الألوان وغورها المبرقش. فتلك البرقشة المعلَّقة في السماء، التي تتلاشى فور انتهائها في تحوُّل سريع، هي التي تستدعي بريق الآلهة وأرواح الماضي. يحس ذلك كل متجوِّل عاشق، من خلال رعشة هاربة تَخترقه. ذلك أنه مشدود إلى تقلبات الطبيعة، راغب في استعادة روعة تلك اللحظات.

كانت ستوكهولم تمتدُّ أمام ناظري، بين الأرض وحضور الماء المُتمايل مع الرياح، المحمول هكذا على هُبوبها نحو منبع مجنَّح. ففي هذه اللحظات المُلائمة تأخذ كل صورة في التحليق المتوازن لتُرسِل إلينا بإشارة ما، مهما كانت هشاشتها الرمزية.

حين أجلس في حديقة ما، يَحدُث أن أتأمل الأشجار دون أن أنتبه إلى أن عصارة تفانينا وعنايتنا تتفرع داخلها، وأنَّ كل شيء يبدو منفلتًا من الجاذبية الباطنية. هبَّت الريح من جديد موجِّهة نظري نحو أعالي المدينة. توقفت عيناي أمام لوحة إشهارية تقول: السماء حد. تابعتُ جولتي على الطريقة السويدية، متقفيًا المسارب التي يأخذها المارة من غير أن يبدو عليَّ طابع التجوال.

هكذا كنت منقادًا ومنجذبًا إلى رشاقتهم العضلية والحسية، فعبر اكتشافي لستوكهولم، كانت الذاكرة تفكُّ رموز درس خاص بالأشياء، هناك حيث يذرع مسار حياتي أراضيها، تائهًا من مدينة إلى أخرى. هناك أيضًا، كنتُ أتعلم اكتشاف سرِّ الحدود والمسارب والممرات والمنافذ المقفلة: إنه السر الخاص بتعليم المسافر. كان ذاك المربع يُوسع من ذاكرتي ومن صبري في الحياة. أقول لنفسي أحيانًا: كلَّنا غرباء حتى تخوم العالم، لكن أن نظلَّ مع موتنا في سلام هو ربما الغرابة الكبرى التي لا تُساويها غرابة.

كنتُ أفكر في دونيز وأنا أحلم بلينا. هل سحَرَني هذا الصيف؟ وبما أننا لسنا محميِّين بأحلام يقظتنا، فنحن ننسى الطبيعة الغافية فينا، تلك التي تفنى في رمادها: ضحكات وصرخات، شفاه شهية وجريحة، وزجاج مكسور يَنجرف على بحيرات مكسوَّة بالثلج والنار. بالفتنة يُدوِّخ الحب عقولنا.

لماذا يكون الحب بهذه القسوة والعنف؟ النفاذ الصبر؟ الخوف؟ لكن ممَّ؟ هل يكون ذلك تعبيرًا عن الوحدة؟ فالوحدة أعيشها بالتأكيد. هل هي الوحدة المتنامية؟ لا. فأنا حاضر مع الأهل. أراقب نفسي وأنا أحيا بينهم وبعيدًا عنهم. وخلال تجوالي في «كاملاسطان». أثارني إلحاحي على العودة إلى تلك المدينة العتيقة، وإلى ساحاتها الصغيرة وأزقتها المُلتوية ودكاكينها المهترئة وكنائسها. هل كان ذاك الإلحاح بحثًا عن سرٍّ قابل للكشف؟

أحسُّ بهذا السرِّ منذ طفولتي الأولى. أعرفه من غير أن أخصه باسم أو صورة أو شكل. فهو يستلم قوته من ارتباطاتي بالكائنات الأكثر حميمية وشفافية. قد أكون مفتونًا بجمال الأشياء والكائنات حين يكون ذاك الجمال ذكيًّا. لكن هذا الجمال الذي طالَما داعبَتْه أحلامي لا ينتمي، شأنه شأن كل سرٍّ، لغير فنِّ الأوهام.

كررتُ لنفسي ذلك وأنا أتابع سَيري، بعد أن قررت شيئًا فشيئًا أن أمكث في ستوكهولم الصيف كله.

– السماء حد: استدرتُ نحو اللوحة الإشهارية قبل زيادة .N.K، وهو متجر أُسِّس سنة ١٩٠٢م (أمن الواجب التذكير بذلك؟).

تسلَّقت هذا المحلَّ الأثري المُتخم بثراء تراكَم على أنقاض الفقر. وبما أني كنتُ غريبًا عن هذا البلد فقد غمرتني أشعة الثراء كما غمَرتني أشعة الفقر، وهو ما سوف أُسجِّله لاحقًا.

صعدتُ ونزلتُ في المتجر مُفعمًا بالعطور والألوان الزاهية والباردة أيضًا، مما جعَلني أتوقَّف عند كل طابق منتبهًا لذهولي؛ بحيث إني أحسستُ في الطابق السُّفلي أني شحنت.

أزياء، لعب، دُمى عارضةٍ للأزياء في أوضاع مُحتشمة، ملابس داخلية وردية وزرقاء، كاد كل شيء أن يكون مشهدًا سحريًّا خاصًّا بالأشباح. في وصفي هذا، الذي قد يبدو مُغاليًا، ما يتكرَّر هو عناء البرودة هذا الذي يتسرَّب إلى الهيئة وملامح الوجه ورقَّته الملائكية. كنتُ أصادف أيضًا هذا العناد الهادئ في الشارع والمتاحف والأوبرا وأمام ديوان الملك.

خرجتُ في عجلة وقد شملَني الانبهار. ذلك أن الصيف هنا ليس صيفًا، إنما تناضد للذاكرة تنسجه الشمس وظلالها والثلج والجليد وبصماتها الواضحة على الجسد والروح، وربما النفس أيضًا، فوضعية الجسد الشهوانية القبرفائيلية[1] قد اقتُطعت على خلفية مضيئة حيث تتاكثَف أرض حدودية — هي «سفيريج» — في نشوتها الباردة.

كانت المدينة اللامعة بهذا الشكل، فيما بين الفصول، تُعين المارة على أن يكسوا أنفسَهم بهذه المشية الموشَّاة بخطًى خفيفة هوائية، مُنزلقة على جليد غائب بالتأكيد، لكنها مشدودة إليه.

وأنا أتوجَّه نحو حديقة «كونغسترا»، توقفت قرب ضوء أحمر. أبصرت على الرصيف المقابل امرأة باسمة أضاءت جسدي بمرورها، وبدل أن أتقدم متجاهلًا إياها، انتظرت في مكاني مقررًا عدم تركها تُفلت مني. «اخترقَت» نظراتي ظهرها. استدارت نحوي وقد ذهبَت بسمتُها. لكن بدون جدوى. وعوض البسمة وجدت لها شامة مُدوِّخة. تعثَّرت ثم رفعت رأسها وضاعَت في الزحام بعد أن تمكَّن شعرها الثلجي المُشتعل من اضطرابي وفوضاي. كنتُ لا أزال عند الضوء الأحمر. لم أتحرَّك باتجاه ناحية ما. هل أنتظر؟ هل أنتظر «لينا»؟ لو كان لي ان أمنح اسمًا لتمثال «سيرجيزتورغ»، وهي ساحة انتهيت للتوِّ من زيارتها، كنتُ سميته شعار برياب.[2] قد تكون لحظات الفتنة المتبقية البسيطة هذه كشفا لحيرتنا واضطرابنا حين تنحَّت مُتعتنا نفسها، وفي لحظاتها الغامضة، في أيِّ مكان، سيُنبِّهني «ألبرتو» بصدد كلمة «انتصاب» قائلًا: «بعد الحرب العالمية الثانية تمَّ نصب سور من الحديد بين مُستهلِكي الويسكي ومستهلكي الفودكا. أما البريسترويكا فقد روَت نفسها من الاثنين معا.»

[1] القبرفائيلية Préraphaelisme نظرية الرسامين الإنجليز الذين أرادوا تجديد الفن التشكيلي بالعودة إلى تقليد الرسامين الإيطاليين السابقين لرفائيل.

[2] Priap إله القوة الجنسية عند الذكور.

بعد ذلك بقليل جلست في ركن هادئ من الحديقة وراقبت الأطفال في لهوهم. على يميني رجل يحمل كيسًا بلاستيكيًّا ويدور حول صندوق قمامة. أُلقي بنظرة عليه دون أن يأخُذ منه شيئًا. مرَّ آخر وفتَّش نفس القمامة، لكن بدون نتيجة.

هذه التحرُّكات أثارت فضولي بعمق، فالفقر لعبة حياة أكثر منه عيب في الوجود. إنه لعبة مُغايرة للحياة والبقاء.

شيئًا فشيئًا، أصبح المكان الذي حشرت فيه نفسي فاقدًا لكلِّ ملامح. عزوتُ هذا التعارُض إلى بنية هذا المكان من الحديقة، حيث يتوزَّع بالتدريج الضوء والظلام، الثراء واليأس. وهو توزيع ولج منه الليل إلى عيني ليُوجه شرودي كمُتجوِّل.

جاءت امرأة وفتَّشت بدورها صندوق القمامة دون أن ترفع الغطاء. حيَّرتني هذه الجزئية. فهل تظن تلك المرأة نفسها عرافة؟ لكن، لم يكن أيُّ طائر شؤم يُحلِّق في تلك الأجواء. فقط يتراءَى لنا التحليق البطيء والبورجوازي لحمَّام الملك. بإمكاننا رؤيته وهو يتبختر أمام القصر الحصين، وفي الباحات الخالية التي يتمرَّن فيها عسكر يوم الأحد على حركات جيش أعزل منذ زمن بعيد. وهذه الصيغة بدورها غير دقيقة؛ إذ الأصح أن هذا الجيش يَسهر قُرب الملك، مثل صورة جامدة في حلمٍ قُطبيٍّ قبل انحسار الجليد.

توقَّف بالقُرب مني باحثُ قمامات متوتِّر. ألقى بنظرة على حقيبتي ومظلَّتي الموضوعتَين على المقعد. يبدو أن حاجياتي حظيت باهتمامه الكبير. هل خلط بيني وبين القمامة؟ قمتُ بحركة مُصطنعة كي أُبعد عني اهتمامه الجشع، فكرَمي لم يُؤهلني إلى أن أمنح لغريب — ولو كان في محنة — ما أحمل من متاع زائد على جسدي العاري.

كنت أول مَن أفقده الخوف شجاعته، كما كنتُ غير مسرور من نفسي، ندمتُ لأني وجهت نظرته الهائجة نحو مركز الفقر. ولأني قسمتُ نصفَين ماهية هذا الفراغ الذي انحفَرَ بينَنا. أشاح بوجهه عني وانسحب.

لم انصعتُ لتلك الحركة المُصطنعة والوقحة؟ ولم انصعتُ لذاك الهلع؟ هل تتوفر هذه المدينة على ثراء من هذا القبيل كي أطارد تبذيرًا من هذا النوع حتى أعماق بئر النظرة؟ ففي الضائقة يسقط النظر، إنه يَهوي كي ينبعث في الهواء اللامتحدِّد كسماءٍ ممزَّقة تتناثَر قرب أشجار مُنتزعة من تجذرها العجيب.

بدأ الرذاذ يتساقط حين قصدتُ مقهى على جانب الشط. هناك كان موعدي مع ألبرتو. في تلك الأثناء كانت زرقة السماء الداكنة قد بدأت تتراجَع ببطء نحو الوجه الآخر للأفق، وقد اخترقها خط أحمر.

انغلق الخط على نفسه بفعل الجليد. في مثل هذه اللحظات من المساء، يحدُث أن تَنكمِش الأرض أحيانًا على نفسها أمام إعادة خلق للعالم تتمُّ انطلاقًا من علامات قابلة للإدراك. تجد الأرض حداثتها في ذهننا عبر تكثيف عاشق لليل، لذا فإنها تبحث عن توازُن جديد. وبما أن العمق فراغ مُشع، فلا شيء يمتلك عمقًا بدون ديمومة. هذه الديمومة هي التي تعترض طاقتنا الأرضية وفوضاها. هكذا، حين يأخذ الليل شكل الماء، يُرسل لنا بإيقاع خاضع لتفرُّعات شبقية.

دلف ألبرتو إلى المقهى وبصُحبته ممثلوه ومُعاونوه. ببشاشة وحرارة قدمهم لي ضاحكًا حسب التسلسل الأبجدي: بابو، بينت، جان، غوران، كيريستين، ليبرينا وماريت. أسماء جميلة. ثم حدثت الرجَّة. توالت أمامي وجوه رائعة حدَّقت في وجه باربو. يا لها من حيوية وخفَّة رُوح، ويا له من ذكاء مُتحرك! تأمَّلتُ بانتباه ملامحها المتناغمة وأنفها المائل بعض الشيء نحو جان. كانت بين الفينة والأخرى تُداعب خصلةً من شَعرها: لو تناثَرَت تلك الخصلة في نظرتي لاشتعلت نارًا.

جلس المُمثلون والمُمثلات وتظاهروا بالجلوس. كانوا لا يزالون بين الواقع ومظهره. يتحادَثُون دون أن يكفُّوا عن التقاطُع والافتراق بين الطاولات والكراسي وزوايا الرؤية. هذا التغيُّر في الأوضاع الرشيقة النزقة مكَّنَني من التأمُّل في تلك اللحظات الرائعة التي تبدأ فيها شخصية لا تزال عارية من صورتها المحدَّدة في بناء تجليها الجديد والمقنَّع.

فاجأتني ماريت، الجالسة بين غوران وبنيت بوقارها وهيبتِها الواضحَين إلى حدٍّ السحر، كان وقارًا تُحرِّكه طرافة يقظة: تُدخن من دون أن تُدخن، وتَبتسِم بخفاء، كانت تُمسك بالمُمثلين تحت سلطة أفكارها وجمالها الساحر، فهل كنتُ مخطئًا في التقدير حين بدَت تَشتعِل غضبًا؟ لكن كل شيء مر بسرعة. التقطَت بنيت علبة ثقاب وغابت عن الشاشة. استدرتُ نحو ألبرتو الذي كان يشرح رؤيته للفيلم. ظللتُ لمدةٍ صامتًا أسجِّل هذه الوفرة من الصور التي يَلتقطها ذهني ليزج بها في قلب ذاكرتي السينمائية كمُتفرِّج ظل سجين أول فيلم رآه. أول فيلم شاهدته كان من النوع الغرائبي: امرأة تهرب من سجنها، ومن علوِّ برجٍ شاهق تَرمي بنفسها في الفراغ كما لو كانت تسكُن للأبد في زُرقة السماء. ولا أزال أتذكَّر الآن أيضًا فستانها الأبيض.

من أين جاءني هذا الاضطراب الذي جعَلني أخلط بين الصورة في السينما وحضور المُمثلين؟ لا أدري. لم أستطع إمساك نفسي عن الانصياع لهذا الخلط بين المستويَين. كنتُ أرى بشكلٍ مُقتضَب وأنصت بسرعة مضاعَفة.

باربو، كما يُوضح ذلك اسمها، كانت شبقيَّتُها واضحة في حركاتها وعلى شفتَيها واستداراتها الموسومة بنوع من الشراسة. سألتُها عن نفسها ومهنتها. أجابتني بين صمتين: أنا مولِّفة الطاقم. وإذن فقد أصبحت عدة سيناريوهات ممكنة: التوليف والتفكيك واستعادة زمن الحديث، وهذا ما جعل وضعيتي اللَّدِنة داخل المجموعة تغدو مرنة، حُمتُ حولها بنوع من الافتعال، لاعبًا بذلك دورًا ثانويًّا في حياتها ذلك المساء. يا إلهي لمَ يلزمني ولوج حياة امرأة كي أحترق فيما بعدُ من الداخل؟

كان الكل، في مرح، يتجرَّعون كئوس جعة أو خمرة، وكلُّ ما تبقى فوق الطاولات كان ألبرتو يلفُّه بجدله البالغ. كان يُنصِت للمُمثلين ويحترمهم من غير تفريط في حقوقه وسَطوته. حدَّثني في شبه مُناجاة عن مشروع فيلمه عن رُونيه ديكارت: أُفضِّل تسمية أصغر أو إذا شئنا: René Descartes. ألم يرث عن أمه سعالًا حادًّا ولونًا باهتًا؟ كان لاعب ورق عبقريًّا ومحاربًا فذًّا.

لنتذكر أنه سافر في بداية شتنبر ١٦٤٩م متجهًا نحو السويد كي «يلبس الشمال» كما كان يقال آنَذاك. كان يصحبُه في رحلته مساعد واحد ألماني هو «هنري سكلوتر»، الذي كان يتزيَّا بزي الخادم: شعر مجعَّد، حذاء هلالي وقفَّازات للثلج.

يبدأ الفيلم من هذا المُنطلق. أمام البحر. إنه سفر مُجاهدة نحو المجهول ونحو موته الآتي. تردَّد ديكارت قبل أن يأخذ قراره في الأخير مؤجلًا بذلك موعد سفره. رتَّب رسائله ومخطوطاته، أحرق بعضها وترك الآخر ضمن صندوقٍ في هولندا.

لم يأخُذ معه غير الأشياء القيمة، كما لو كان سفره ذاك علامة آتية من العالم الآخر. هل كان يحدس شرًّا في الأفق؟ كارثة مثلًا؟

ستقوم اللقطة الأولى الخالية من أيِّ جنريك بشد نظر ديكارت إلى حركة الماء. حركة هاربة. وستُساعدني الصورة التي رسمها فرانز هالز لديكارت في الماكياج، أي في تحديد الطابع التأمُّلي للفيلسوف.

يبدأ السفر فجرًا في جوٍّ بارد. ثم تشق الباخرة طريقها وسط مطر يشتدُّ ويخفُت ويَنطلِق هوج الرياح. ليس في الجو عاصفة، بل نسيمٌ جامح. إنها الروعة. الروعة البدئية. يُلقن ديكارت لصاحبه بعض الأفكار الحقيقية والأحلام الجميلة لتأثيث صمت السماء. يَحكي فلسفته على شكل سيرة ذاتية. عودة إلى الماضي تتخلَّلها الومضات. لا شكَّ في أن متعة الحكي تنبع من هذه الومضات. أفكار دقيقة موشَّاة بذكريات من طفولته في أنجوفين.

في لحظة معيَّنة ينسحب ديكارت إلى مقصورته، وينام. إنه الحلم الرابع المُهم في حياته. يرى نفسه يلعب بأقنعة. وبعد أن أعمَته الأقنعة يَستفيق. ويصيح: «في لا مكان».

يصل ديكارت في الخامس أو السادس من أكتوبر إلى ستوكهولم، ويُقيم في فندقٍ كان يُقيم فيه «شارنيت» سفير فرنسا آنذاك.

تستقبلُه الملكة كريستين في اليوم الموالي. يكون الاستقبال فخمًا وتكون أجوبة ديكارت مفعمة بكثير من الاحترام. تمنحُه الملكة ستة أشهر كي يتأَلَّف مع البلد، إنه الوقت الكافي لإنجاز شريط سينمائي!

يقوم ديكارت في المرحلة التعليمية الثانية بزيارات وجولات. ويقوم بالملاحظة. وعلى تغيير صورة ستوكهولم بكاملها كي أجعلها تُلائم النظرة الفضولية لديكارت. ستكون «صورة تركيبية» من النمط الذي يستعمل أحيانًا في السينما الجديدة. سأضع كاميرا مكان كتابه «انكسارية الضوء»؛ ففيه يتحدث عن الحاسة السادسة للأعمى ولعصاه، سأحول الأعمى إلى بصير.

ستتوالى صور ستوكهولم كما هي عليه الآن، لكن منظورًا إليها انطلاقًا من وثائق من عصر ديكارت؛ خرائط ورسوم وصور، مطبوعات ولوحات وأدوات وآثار من المرحلة.

ستكون ستوكهولم مدينة تصول وتجُول عبر الزمن. ذاكرة للحاضر والماضي أمام نار الكاميرا.

ما الذي تُريده الملكة من ديكارت؟ دروسًا في الفلسفة. إنها تستقبله في الخامسة صباحًا في مكتبة القصر.

وتبدأ عطالة ديكارت في خدمة الملكة. كانت كريستين تتعامل معه كما يلي: تطلُب منه باليهًا وكوميديا ونصًّا لأجل حفلةٍ تنكُّرية. كل هذا تكريمًا وتشريفًا له. وكان هو يقوم بالتنفيذ. لقد تمَّ العثور على النص الأخير الذي كتبه، ويتضمَّن عشرين مدخلًا بالإضافة إلى الديباجة. النص بكامله يمتدح السلم وينتهي بهذا البيت:

وبالرغم من ذلك، ليس لنا سوى مَلِكة واحدة وإله واحد.

سأصوِّر الباليه في أوبرا ستوكهولم.

في بداية فبراير ١٦٥٠م يُصاب ديكارت وهو ذاهب إلى المكتبة في الخامسة صباحًا. بجنابٍ ناتج عن البرد القارس. وفي الحادي عشر من الشهر نفسه يمُوت وهو لخادمه شولتز بهذه الجملة الأخيرة: آه يا عزيزي شولتز، يَنبغي علينا الرحيل حالًا. صمت «ألبرتو» ثم استرجع موضوعه مستطردًا: أنا مُصرٌّ على تصوير هذا الفيلم بنفسي.

– قاطعته بغتة وبحدة: لماذا أنتَ بالذات، الآن في نهاية القرن؟

– أنا أنظر لمهنتي انطلاقًا من استراتيجية شاملة. سأوضِّح لك ذلك. فأنا أنتج أنواعًا عديدة من الأفلام، بعضها إيطالية (تتوجَّه لجمهور محلي)، والأخرى أوروبية كما هو حال هذا الشريط. أوروبا هي مستقبلنا، وأنا أفكر في أن أصوِّر فيها أفلامًا أخرى تدور حول بلدان متوسِّطية.

– إنَّ ما يُثيرني هو هذه الـ «إلى حد ما».

كانت قاعة المقهى قد أصبحت فارغة تقريبًا. وحدهما رجل وامرأة كانا يتناولان عشاءهما في صمت طقوسي، لا يسري إليه ملل أو مرح. انجذاب عاطفي فقط بين وجهَين تضيئهما العتمة. كانت المدينة تبدو عبر النافذة مُنكمشة على نفسها، موزَّعة بين المسرعين والبطيئين. ولقد أثار الليل الشمسي غبطتنا ورشاقة الحياة فينا حتى بزوغ الفجر.

كان التفاهُم الفِعلي قد جرى بيننا. لكن هل كان هذا الكلام الجاري بدون تحفُّظ تجاه نفسي هو الفكر الحي للقاء بيننا، أم إنه كان مجرَّد حوار؟ في أية لحظة كان ألبرتو يُخاطب صداقتنا؟ كان منتبهًا بشكلٍ خاصٍّ إلى حضوري، وكما كان مهتمًّا بي فإني كنت أهتم به في خضمِّ وحدة طردها الليل. وحدة مشرقة في يأسها. مشرقة ومليئة بالعناية.

– بدأ حوض البحر الأبيض المتوسط يغزو منِّي الذهن منذ الطفولة. لقد كتبت سيناريوهًا كاملًا عن الحصان الشمسي. نعم، إنه أسطورة. لكنَّها أسطورة جديدة اخترعتها لنفسي (صنعتها: هي الكلمة الملائمة) وبشكلٍ كلي: إنه سرد إغريقي في بعض جوانبه، شرقي وغربي معًا.

– وإيطالي.

– بالتأكيد! لا تنسَ يا جيرار أن البابا هو أسطورتنا الحسية. تأمَّل وجهه وأوضاعه وحركاته ورقصته الثابتة.

– شاهدته مرات عديدة في التلفزة. سيأتي اليوم الذي ستبيع فيه الراهبات ملاحتهن الخفية إلى وسائل الإعلام.

قهقه ألبرتو من الضحك:

– لقد حلَّ هذا اليوم. لقد عجلتُ به أنا بنفسي. فقد أسست هذه الرؤية أمام ملايين النظارة في شريط تمَّ عرضه في السنة الماضية. أحداثه تدور في دير، وهو ما نُسميه في البلدة باسم «النفَس البطيء». إنه تلك الردة القصوى التي بموجبها يتمُّ إعدام كل إمكانية للصراخ، وضبط الصراع والرغبة واللذة. لقد سجَّلت كل شيء، ملامح الراهبات، أياديهنَّ الصامتة، نظراتهن، صدورهن وسيقانهن المُغلَّفة من خارجها وداخلها.

– كان من اللازم إذن وضعُ منظار حتى لا يُخطئ المرء في معرفة جنس الراهب.

– لقد وضعتُ منظارات من القرمز والبنفسج على بعض أثاث الدير وفي الخارج على السطح، لكن الملك اشتعل نارًا أمام الكاميرا.

لم أفهم ما يريده بقوله. اكتست الدردشة إيقاعًا روحيًّا؛ فالحلم السردي له وزنه: لماذا التفكير في الهناك حيث لا يتعلَّق الأمر سوى باصطياد الزمن؟ ولم يتوانَ ألبرتو في أن يحكي لي قصة حياته:

كنتُ وأنا طفل، أقضي عطلتي مع أبويَّ على شواطئ الجنوب. كنتُ أسبح بسرعة حصان. الحصان الشمسي الذي لم أرَه أبدًا كان يُصاحب عومي ورُؤاي وأصوات البحر. تصور. السينما برمجة للأوهام والأحلام. أوهام مُستعارة. هذا الوهم يكون مُباشرًا بالنسبة للمُتفرج في القاعات العمومية، وهو بالتأكيد يقطع منه الأنفاس. السينما سحر بالأبيض والأسود. وحين تكون بالألوان فإنها تكسو الأشياء والمناظر الطبيعية. علينا اختلاق الأساطير حتى يغدو هذا السحر حقيقيًّا. فلكَي يكون الوهم حقيقيًّا أو زائفًا، يلزم على الجمال أن يهبَه تلك الصفة؛ فالجمال من الهشاشة بمكانٍ؛ بحيث لا يُمكنه أن يمنح لعيش المتفرِّج أثرًا أكيدًا. علينا توظيف تأطيرٍ دقيق لا ثغرات فيه، وإيقاع يغزو صلبَ كلِّ صورة. فمن غير إيقاعٍ تظلُّ كل صورة مجرد جثَّة مُتعفنة للحياة. كل شيء يلزم أن يغوص داخل رؤية أسطورية. فحين أكون بصدد فيلمٍ أُفكر دائمًا في التركيب. فأنا لا أترك شيئًا للصدفة أو على الأقل أُحاول ذلك. لكن لنترك هذا النقاش لوقتٍ آخر. مع السلامة أيها الصديق.

وبدل أن ينصرف، عاد ألبرتو أدراجه. منذ ذلك الوقت ترسَّخت صداقتنا. وهي لا تزال كذلك إلى اليوم. هذه الصداقة علمتني أن أوضح لشركائي في العاطفة، سواء كانت حبًّا مُتوحشًا أو عاديًّا، صداقةً عُذريةً أو تحابًّا، أن أوضِّح لهم بأن العاطفة تخضع لمبدأ مُزدوَج يتطلَّب الكثير من الرقة والعناية. إنها صلاة موجَّهة للتقاسم، وهو تقاسُم مُتنامٍ. في الحياة والموت وآثارهما. فالمحبَّة، وفية كانت أو مزاجية حسب تقلُّبات القدر، هي عهدٌ بين كلمتين.

اعتبر الصداقة حدثًا عظيمًا في حياتي. ولأنَّ هذا الحدث يغدو اختبارًا ومُكابدة فإنه يلزمه المحافظة على صرامته المجاهدة. لأيِّ شيء؟ للفرادة التي لا تُنسى لهذا الحدث.

قد أفقد صديقًا، لكني لا أفقد أبدًا ذكرى الترابط الأول مع أية قوة حياة. وسواء كان أصدقائي أحياءً أو أمواتًا فإني أحتفِظ بذكرى الوجه أو بملمحٍ أو بأسلوبٍ أو بقلقٍ صادق مع نفسه.

في هذه الحالة، يغدو كل حوار، نشطًا كان أو خاملًا، مطلوبًا في صحو الحياة وقوَّتها المُعجزة. لكلِّ شيء حساب في الزمن وبالزمن، لكن عوادي الزمن تملك أيضًا حلاوةَ مَلَلها ورتابتها ووحدتها.

وإذا ما ظلَّت الصداقة مُحتفظة بهذا الانفتاح العقلي نحو رفيقِ طريقٍ فعلي، فإنها آنَذاك نتيجة حقيقية للتفاني.

كان ألبرتو يربط بين الكلمات ويَمزج بينها بفنٍّ رفيع من التلوينات. تلوينات نشطة موجهة نحو فكر واحد كان يأخُذ وقتًا كافيًا لتطوير هذا الفكر، من حيث هو فكر الصورة، ولأرشفته في أفلامه على واجهات متعدِّدة. وكان عليَّ أنا التقاط الأدلة والإمساك بها ومُتابعة تناميها. ربما يلزم على المرء أن يكون في لحظة عطالة قُصوى، كما هو حالي، كي يستطيع بلوغ فهمٍ أفضل للآخرين، وفهم حالاتهم النفسية وأفعالهم وسرعة كلماتهم المُرتجلة على خلفيةٍ صاخبة تخترقها علامات عمياء صمَّاء بكماء.

يُعجبني في الحوار ذاك الصبر المستمر. بَغتة وضح لي ألبرتو إحدى حكايات شريطِه.

– كان ديكارت يُردِّد أن من بين الأشياء التي يصعب الحصول عليها امرأة جميلة وكتاب جيد ومبشر لا يُخطئ، إنها مادة لفيلم ذي ثلاث شخصيات، اثنتان مرئيَّتان والثالثة لا مرئية، أو بالأحرى تكاد تكون كذلك. توجد المرأة بين الله والفيلسوف، وبين الله والملكة. لقد أرسل «مازاران» بلدكم إلى «كريستين» ساعات مُوشَّاة بالرسوم، وألبسة داخلية مُعطَّرة، وأحصِنة قصيرة القامة ... وبعض الكتب الجميلة المجلَّدة.

نهض ألبرتو وتوقَّف متأهبًا للانصراف. ومن جديد لم يفعَل ذلك. هل خمَّن قلقي وقرأ بعض الاضطراب على وجهي؟ ولم يتردَّد ألبرتو في استفزازي: جيرار، أنا قارئ للوُجوه وتقاطيعها، وللأيادي وخطوطها، وللشفاء وصمتها. أنت لا تبدو في محنة.

أمام صمتي، اقترب كثيرًا مني، وكان لا يزال واقفًا: في سنِّ الرابعة عشرة (يا له من عمر جميل!) تعلمت نظم قصائد شِعرية. وفي العشرين تعلَّمت التصوير الاحترافي، وفي الثلاثين تعلمت إنجاز الأفلام. ثلاث لحظات محورية في تكويني، والكتابة؟ هي ترك بصمات الصوت والعاطفة على رسم الكلمات. والتصوير؟ إنه انفعال النظر حين ينطبع على الشريط الفوتوغرافي.

– والسينما؟

قهقه ضاحكًا: إنها سردٌ متحرِّك، شيء من الكتابة وشيء من الصوت والصورة ... كل هذا معًا.

لم أَعُد أُنصِت له، فقد منعني بسطوته الأكيدة من الانكماش على نفسي، عزلني ألبرتو عن صمتي وعن الحزن الذي غزاني فجأة. فكَّرت في دونيز، في الطفل وفي إقامتي الطويلة في ستوكهولم، اعتراني إحساس بالعبث غطَّى على صبري، مدَّ لي ألبرتو يده. أودَعتُه نفسي. ولم يتوانَ عن الاستمرار في حكي قصة عشقي الشخصية: جيرار، لكي تحيا علاقة زوجية ذكية، عليك ألا تكذب على زوجتك، وألا تُحدِّثها عن عشيقتك. فهذا الصمت ليس كذبًا جميلًا. إنه في رأيي أسلوب ومبدأ لياقة؛ فالوفاء إما إن يكون مشتركًا أو يظل خدعة. كن واثقًا من وفائك ووفاء زوجتك. لا ينبغي عليك الإفصاح بكل شيء لزوجتك. فالمرأة سرية، وهي محكومة بالسرِّ حتى لو كان شائعًا. وسواء روَّضتها الحياة بشكل جيد أو سيئ فهي تفعل ما تستطيعه، ونادرًا ما تفعل ما تُريد. ولا فائدة من إرغامها على الإنصات لما لا تريد أو لما لا تستطيع استيعابه. لا أدري لمَ أعطيك هذا الدرس. فأنا أعيش حياة فاخرة بين الفنادق ومنزلَين في ميلانو.

– وزوجتك؟

– يعنُّ لي أن أغازلها أحيانا في التلفون. أنا مُتزوج وسأظل دائمًا كذلك. لكن ربما ليس بنفس المرأة. لي ثلاثة أبناء وبنتان.

– يا لها من فكرة مُضحكة أن يموت الإنسان وهو مُتزوِّج.

– أرى أبنائي بانتظام، الأكبر فالأصغر، وحسب بروتوكول عمري الذهبي، الذي له وزنه، فهناك دول كثيرة تستمرُّ وتُراقب نموَّه. أخيرًا، من الأفضل نِسيان كل هذا.

نهَض ألبرتو واقتراح عليَّ قائلًا:

– هل تريد أن تأتيَ معي إلى «ستامين» مرقص الجاز. سألتحِق هناك بمَن هم معي من المُمثلين والمساعدين.

وخرجنا. كانت الليلة مُقمرة والشارع خاليًا وعاريًا بشكلٍ مُوحش. وحدَه كان أحد المارة. التحقَ بنا جان وكأنه قد خرج للتوِّ من حادث عابر، صاحبنا، في محطة «سلوسن» صادَفنا سكيرًا مُصابًا بالهذيان. ولم يفتأ أن هاجم السكِّير رجلًا اضطرَّ إلى الفرار، ثم امرأة عرفت كيف تتفاداه. تراجع السكِّير وقد تشنَّجت ملامحه وشد بقوة على يدَيه العجراوين. إنه شجرة. شجرة مُقتلعة من جذورها بعد أن ارتوَت بشراب السنابس. هاجم السكير الريح والعاصفة والصاعقة ثم سقط إلى الأرض هامدًا ... اقترب مني ألبرتو هامسًا: حين يَنفجر سويديٌّ فإنه يقتل نفسه.

– يحترق مثل قطعة ثلج مُلتهبة.

– هذا غير صحيح! أجاب «ألبرتو».
– انظُرا.

في ممر المترو كان الناس يمرُّون مُتظاهرين بعدم رؤية أي شيء. إنها نظرة تحتية حائرة. ثم غدا كل شيء عجبًا. أخرج السكِّير (كيف يُمكن تسميته في هذه اللحظة) قنينة أخرى من شراب السنابس. بدأ يُحركها في الهواء وحول رأسه. ثم تمدَّد على الأرض وتجرَّع نصفها. بعد ذلك رمى بحقيبة ظهره وهو يضحك. هدَأت حركاتُه الآن. فهل كان يحلم أيضًا بأنه يُحلِّق فوق سكة القطار؟ هل جاءته الرغبة في القفز في الفراغ؟ لم يتأخَّر السكِّير في البدء في هذه المغامرة. لكنه وبمُعجزة، توقف بغتة قريبًا جدًّا من السكة إلى درجة اضطُررنا معها إلى الإسراع في توجيهه نحو مخرج المترو طواعية أو إكراهًا. ولم يلبث السكِّير أن عاد أدراجه مترنحًا، كسر الزجاجة وبدأ بتشتيت نتفها بقدمَيه ووضَعها الواحدة فوق الأخرى. ما الذي سيفعله الآن؟ ترك نفسه يَنزلِق على طول الجدار وقرفص قبل أن يُعاود السقوط. أمسكت به الشرطة من غير تعنيف. وبباب الخروج عاد إلى وعيهِ ووضَع فردة حذاء على رأسه مدندنًا بعبارة «الواجب، كل الواجب» ثم رتَّل هذه الأبيات للشاعر لاجركفيسيست:

كما الغمام،
كما الفراشة،
كما ضباب النفس
على مرآة.

في «استامين» كان الجو فائق الحركة. رقَصنا لوقت طويل. كان ألبرتو يعانق امرأة لا أعرفها، وبين حصتي بلُوزْ انتهز الفرصة لتقديمها لي: فرانسين فيسبرغ، نفس الاسم الذي تحملُه ابنة ر. ديكارت فرانسينيتا بالهولندية. تُوفيت وهي في سن الخامسة، يا له من شخصية غريبة الأطوار. هو الذي كان من حاشية الأميرة بالاتين إليزابيت والملكة كريستين، ها هو ذا يُخصب امرأة هولندية تُسمى هيلينا يانس، كانت آنَذاك في خدمته. إنه زواج مُختلط وغير شرعي.

كنت على وشك الإجابة. لكني للتوِّ صمتُّ. غيَّر ألبرتو موضوع الحديث: الجاز هو عبقرية السود الأمريكيِّين. أما عبقرية البيض فهي السينما. الأدب الأمريكي نفسه عبارة عن سينما. فلا شيء غير الأفعال ونوايا الأفعال، ولا وجود للحلم أو لهواجس الداخل.

سألته بمكر: والهنود؟

بدت فرانسيس شاحبة وهي تتدخَّل لإسكاتنا: صمت! وبأصبعها كانت تُشير إلى عازف الساكسفون وهو يبدأ مقطوعة انفرادية.

نعم. كانت فرانسين على حق. إنه حق مُحتشِم إذا ما قُورن بقساوة التاريخ الضارية. فما ارتجله الموسيقي كان من الحدَّة والحيوية بحيث سمعت نفسي أقول: المُعجزة تكمن في فنِّ الارتجال هذا الذي يُحول الكتابة إلى حنين والعبودية إلى حرية والحرية إلى إيقاع. ستقولون إنَّ الجاز تسلية! نعم بل وأكثر من ذلك: إنه هدية مِن هذا القَرن لذاكرة الناس ولتُراثهم.

كنتُ أقول لنفسي هذا في الوقت الذي نهضَت فيه مُغنية سوداء مِن على مقعد في عمق القاعة وتوجَّهت نحو المنصَّة لتناول الميكرو. كانت ذات هيئة ولباس غريبَين إلى حدٍّ أني عاجز الساعة عن تصويرها. كل ما أتذكَّر هو صوتها البلوري الذي يُغلفه ارتجاج خفيف. أصبحت أحسن هذا الارتجاج بوضوحٍ حين سكتَت الجوقة تاركةً إيَّاها تُرنم جملة متميزة جعلتني أرتعش من الفرح.

إلى زهرة البراري

ستوكهولم مدينة تتفرَّع في المكان كما لو كانت نبتة جميلة تُروى أبد الزمن. جذورها جزيرة اسمها: «غاملاستان». وأنا أتمشى، أحسستُ إلى أيِّ حدٍّ تَحمي هذه المدينة حياتها السِّرية. وكما لو كنتُ عاشقًا متحركًا، يَخلط بين اسم مدينة واسم امرأة، تركتُ نفسي أنقاد مع لغة حبِّي وحدها ومع ذاك الاستقبال المُؤثر الذي نحسُّه حين نتموَّج بفضاء حياتنا.

خلال تجوالي، كانت ذاكرتي المبهورة بالصيف وألوانه المُتغيرة، تُعيد تشكيل فسيفساء المدن، كل المدن التي زُرتها في الصحو أو المنام. فهذا الزمن الغالي، المُزركش بإشارات مُتراكمة يتجاوَز كونه مجرَّد حلم طائش، إنه يسمُّ ذاكرتي بلمسات ليس لها فنٌّ مقابل في ذهني غير فرحة تغيير إيقاع الحياة من مرتبة مُجاهدة إلى أخرى.

غيَّرت اتجاهي حين انتبهت إلى أنَّ ريحًا شمسية دفعت بي نحو متاهة من الأزقة حوَّلتني عن وجهتي، إلى درجة أن تقلُّبات الريح طبعت خُطاي بإيقاع خفيف مُتمايل.

يا له من إحساس غريبٍ يأتيني وأنا أخترق هذه المدينة الشائخة، التي تمَّ ترميمها حسب خيال البطاقات البريدية القديمة. قد يتعرَّض الزائر، الذي يقف أمام هذه الصور المصبوغة بالغرابة — غرابة بالية — لاكتساح لحظة حنين ماكر، كما لو كان عالم حفريات للمدن الغافية تحت الثلج. إنه حنين إلى ما لم يَعِشه ويحسُّه بعد.

بالرغم من ذلك، وفي مُنعطف أحد الأزقة، فُوجئت بارتفاع شرفة صغيرة دائرية ومُزهرة، تبزغ من الحائط كان ساكن ذاك المكان كان يَطويها حين يحلُّ المساء، ويدخلها البيت من الجانب الآخر للسور بمُعجزة معمار قابلٍ للطيِّ. ثم انتقلت دهشتي إلى مكان آخر بعد أن أثارتها سياجات حديدية مُتشابكة وعلامات كثيرة تقودُني من زقاق لآخر.

بعد أن خرجت من هذا الحلم، بدأتُ أشحن وأفرغ آلة التصوير. سايرتُ فُضولي والتقطتُ منظورات ومشاهد صُغرى وكل حدث غريب وشاذ. فهذه الآلة رفيقة سفر. إنها ذاكرة

محمولة على الكتف. وأنا أُصور بسرعة. ففي كل لحظة أُصوِّب. وفي كل لحظة أصطاد اللقطة في الهواء. لذة خالصة أجدها في الخطوط والأشكال، وفي التأطير والمداوَرة. لكن تصور، فأنا، وكما أُقدم نفسي أحيانًا؛ أي كغريب مُحترِف، ليسَت الغرابة التصويرية هوايتي الأصلية ولا مجالًا لحديثي. فأنا لا أسمح لنفسي بهذا الحديث بصدد أيِّ بلد ولا أيِّ ثقافة أو شخص.

لست عالمَ أعراق ولا هاويَ جمع الصور. فقط أُحاول أن أستعيد لهذه المدينة الشائخة رونقها الذابل. مدينة نخالها متحفًا، وقد سكَنَته العبادة الدُّنيوية للموتى وللأرواح. فهل أنا أيضًا شبح ميِّت؟ عائد من وإلى حياتي السابقة التي راكمَتها تجربتي كمُسافر؟ حياة ليست سديمًا للتجلِّي كما يرى ذلك الصوفيون، وإنما اختبار عذابات تجاوزتها قوة الزمن.

بلغت الزقاق الذي تسكنُه لينا من غير أن أحسَّ بذلك أو أسرع الخطو. كانت يداي فارغتين حين ضغطتُ على زرِّ الجرس. على العتبة كانت تُوجد جريدة وورقة إشهار مُوضة وبطاقتان بريديتان وطرد بريدي. أخذت الكل ومددتُه لها حين ظهرت وراء الباب. ألقَت لينا تجاهي بنظرة سريعة وأخذَت مني مُراسلاتها. كانت الساعة حوالي الحادية عشرة. وحين مرت أمامي في البهو استدارَت جِهَتي. كانت لا تزال شبه نائمة. بدَت أمامي حافية وذات لباسٍ بسيط. سروال دجين وقميص بدون أكمام عليه خطوط عريضة. كان وجهها خاليًا من المساحيق. جمال طبيعي ومظهر مُوحش إلى حدٍّ ما وتعبيرات لا تتجاوَز الأساسي.

هذه الجملة المُسرعة حول سحر لينا تبدو، وهي مُصاغة بهذا الشكل، كما لو كانت هروبًا نحو الأمام. بعد ذلك فقط، حين كنا نتجه نحو ستوكهولم الكبرى، غدا جمالها المضيء أو الغامق أكثر حميمية وقربًا مني.

لم تكن تحبُّ الخُمول، لبسَت حذاءها الخشبيَّ المصبوغ بالورديِّ، ونزلت لتقتنيَ حليب قهوتها.

بدأت أُحدِّق في المكان بالرغم من أن ذهني كان مشوشًا. ولو كان عليَّ أن أصف أثاث البيت كما تُرسم لوحة لكنتُ منحتُ للمشهد طابع عراء أو شبه عراء قوي، وكذا جمالًا متناثرًا لبعض العلامات يكون ملائمًا لمزاج لينا وحيويتها ووَقارها. كنتُ أشرتُ بالأصبع إلى ممرٍّ فارغ يَحمل زخرفةً وحيدةً ولوحة سيرغرافية لروثكو لا تَنكشِف للعين للوهلة الأولى. ولجعلت هذه اللوحة تحتوي على ثلاث منظورات، يكون القسم الأول منها. مُحتويًا على الممر فيما ينفتح ويَنغلِق الآخران في تقابل لا مُتوازٍ بين غرفتَين. في الأول سجادة صناعية رمادية عليها رسم دائري أبيض ذو لون رمادي يتكاثَف تدريجيًّا على الأطراف، وسرير

راحة جلدي مزيَّن بستارٍ هندي، وبعض الوسادات ذات الزرقة الداكنة والمُختلفة الأحجام؛ وفي الزاوية خزانة قديمة بينها وبين الجدار فسحة بحيث إن مقعد الراحة الذي يبدو وكأنه يلامسها يدخل في هذا الفضاء حركة عامة وتغيرًا يتسلَّل إليه نور تدريجي مُصفًّى. في الغرفة الأخرى تعمُّ الفوضى. إنها خطوة أولى نحو السديم. هذه اللوحة لم تُوجد أبدًا. قلت لنفسي: لو كنتُ رسامًا شماليًّا لكنتُ بدأت بفنِّ الإشارة قلَّ أن أضبط الصورة، أعني الصورة قبل عودة لينا.

ربما كان انطباع اللاتوازي الذي تُعطيه تلك الزخرفة يتزايَد حدة لوجود شجرة طفيلية تبدو وكأنها تلجُ الشقَّة من النافذة الواطئة، أو كأنها تدخُلها وتُطلق فيها جذورها في صلب ذاك التقابل. أما السجادات والطنافس فقد كانت تُشكِّل أمام عيني فنًّا لتنظيم الفضاء يحكمه مبدآن هما التناسُق والإهمال الطفيف.

لم يكن بيت لينا موسومًا بمبالغة. كانت الزخرفة خافتة ومُلائمة لهذا المسكن المؤقَّت المتكيف مع الفارق الزمني الذي تحياه لينا باستمرار. كانت لينا تربح أو تخسر الوقت حسب نوعية سفراتها. فهل كانت قوَّتها الحياتية مُتوازنة فعلًا مع تزامن عاطفي معيَّن؟

كانت تحمل معها من سفراتها بعض الأشياء العجيبة التي تضعها على طاولة صغيرة من الخشب العتيق كما لو كانت علامة على العالم. قارنت بين البلدان التي زارتها وتلك التي قمت بزيارتها. أما إثارة البلدان التي كنتُ أجهلها، أو تلك التي ما تزال كذلك بالنسبة لي، فقد أيقظت فيَّ إحساسًا بالغربة. بدأت أنظر إلى ستوكهولم من الخارج، وقد غمرني إحساس بالذنب والعبثية. أغمضتُ عيني، وما كدتُ أفتحهما حتى كانت لينا مُنتصبة أمامي. كان عليَّ تنظيف هذه النظرة ونسيان دونيز والطفل وكل شيء معهما، مفتونًا بثقب إرادي في الذاكرة. أعرف أني في مثل هذه الحالات أهرب من نفسي خاضعًا لوهم استعمال طاقة خاملة. لقد كنتُ واقعًا تحت انبهار اللحظة.

عادت لينا محملة بالمئونة. وبعد القهوة والصمت الطويل سألتني بشكل مباشر: «ما الذي تفعله في ستوكهولم.»

– لا شيء، أو لأقل: تقريبًا لا شيء.

– إذن، لتأتِ معي.

لبسَت حذاءها الرياضي، فتحت نافذة وخرجت بعد أن دسَّت مفتاح الشفة في الجيب الداخلي الأيمن لسروال الدجين. والتحقَت بي في الخارج.

غادرنا المدينة العتيقة التي تُسمى أيضًا «مدينة بين الجسرين». يعجبني في هذه التسمية مجاز الطرق وتقاطعها بين التلال والماء المحيط. كان كل شيء خاضعًا للترتيب فيما يشبه رقعة شطرنج من الأزقة والأدراج، كما لو كانت الجزيرة، وهي مشدودة إلى الأرض، تحلُم بالسفر. ليس صدفة أن تكون العبقرية الشمالية ذات موهبة في شئون الأركيولوجيا البحرية، بما أنها عبقرية تعشق الكنوز المخبوءة في أعماق المياه.

حين تسلَّلنا باتجاه شمال المدينة توسَّعت الرؤية لتشمل شبكات طرق وشوارع عديدة. كان الجسر، فيما وراء ظله الرطب الذي تحمله المياه، يقترح على ثمالة الخط المستقيم، فبين كل الجسور وصورتها في ذهني نقطة تلاقٍ خفيَّة تُوقظ متعتي في التجوال بإيقاع طاقة فارغة. إيقاع يخط على شاكلة زهرة البراريِ، تشابكنا العاطفي، ومدينة تضفر خطواتنا على صورتها. جولة راقصة عبر شوارع كبرى رائعة جعلتني أكتشف فيها ما يشبه ساعة هندسية، إحدى أكثر الساعات دقة وتعقيدًا في العالم، تُقارب فيها الحركية الاجتماعية دورة الطبيعة. هكذا يتكيَّف تسكعنا تدريجيًّا وببطء مع المادة المَرِنة ومع توزيعها الزمني.

فجأةً اختفَت أصوات السيارات في زاوية شارع. وهو شيء جعَلني اعتقد أن الجُدران تفصل بين الصمت والأصوات الخلفية البعيدة. صمت لينا المُفرد. كانت تمشي بإيقاع ممطوط ومطواع. ولم تكن بنا حاجة إلى الحديث طالَما أن المدينة كانت تبدو مُرتاحة على مبدأ للتوازُن وهندسته الأخلاقية؛ مبدأ قادر، داخل منطق الحماية نفسه، على التقاط الشمس المُتقلِّبة، غير عابئ بالريح ومُفاجأته القاسية.

كنتُ بين الحين والآخر ألقي نظرةً باتجاه لينا من غير أن أفقد الإيقاع والتناسُق المُتأرجح الذي يطبعها أو يغيب عن نظري أي حدث عارض. وفي لحظة معيَّنة تساءلت إن لم تكن لينا، النزقة والطائرة، تعتبر أن ستوكهولم حكاية سفر لا تتجاوَز كونها مجرَّد محطة في هذه الحياة؛ ذلك أن الصمت الذي أنبه عليه هنا هو عبارة عن جوٍّ شفاف يحلم فيه ذاك الصمت بكل المنظورات التي ترسمها الأشكال الهندسية وجمالها المائل إلى الخضرة؛ وهو ما يُذكي لدى طبيعيي بلدان الشمال روح الشفافية وجمال العدم.

هذه الروح أتصوَّرها في طابعها البلوري وهي تُغير من انعكاساتها مع التغيُّرات الطقسية، وتوزيع الضوء والعتمة. أجدها في الحركية الاجتماعية وفي الاختلاف الجِنسي والأعمار والمجموعات والحارات والمهن، دون أن ننسى الاحتفالات وحب الطقوس الانتقالية ووضع الزهور على القبور بدموع مكتومة.

شيئًا فشيئًا سأدرك كيف أن تلك الحركية الاجتماعية خاضعة للمراقبة. وقفتُ عند ورشة وقلت للينا: «ما الفرق بين مضيفة طائرة وسائق رافعة؟»

– سائق الرافعة لا يُخاطر بحياته مثل المضيفة ... إنه محميٌّ أكثر ويتمتَّع بأجرة قد تكون أفضل من أجرتي، مثله في ذلك مثل كل عامل مُتخصِّص.

أمسكت للتوِّ بهذا الملمَح الساخر؛ لكني صمتُّ في حيرتي. لا أدري إن كان هذا القانون الاجتماعي والسياسي التوازُني والمتسلِّط خفية قد خنق الصراع الاجتماعي، كما أني لا أعرف إن كانت رُوح الشفافية هذه التي غطَّت بشكلٍ خطير على أصوات المدينة قد بطحَت هذا البلد الأعزل. فكرت مرة أخرى في الاغتيال الغامض لأُولوف بالم. والتحقيق الغريب الذي كان وراء استقالة وزير أو وزيرين للعدل. لكن ماذا؟! أليست الحياة السياسية لعبة تَطمس كل شفافية وتستعر نارها غالبًا في أحضان التستُّر والفساد؟

وجدنا أنفسنا داخل حديقة عمومية حين قادتنا الشمس خارج التجمُّع الحضري وزحامه. أصبح الهواء خفيفًا. هنا تظهر العبقرية النباتية والمائية للسويدي وتنشئ حدائق لها إيقاعها. حدائق موسيقية إلى حدٍّ ما. وتنشأ بين الطبيعة والإنسان علاقة نرجسية مُعتدلة تشكِّل عربون محبة للهوية الطبيعية: إنها نرجسية موجَّهة بشكلٍ كامل نحو قلب الإنسان القانع بنفسه كبُرعم طبيعي متحوِّل، وهو يقوم بذلك من غير أن يفرض على نظراته القيام بنفس الشيء، وبدون أن يرد لهم المقابل الأمثل لرغبة محكومة بالخيبة. ويغدو الوعد بحياة هادئة، على ضفة بحيرة، اكتمالًا لحساسية مسكونة بالتوازن والهشاشة الداخلية.

إنَّ ما أسميه حدائق موسيقية يشير إلى ذلك التوازن الذي تكون فيه روعة الطبيعة مطالبة بتجميل بهائها الخاص، عبر مسرحة الانفجار المستمر للعناصر وتجديد البستاني لحركتها الرفيعة الموسومة برهافة زينة مُنفصمة وبفيض من الشهوة السحرية. من هذا الحدس الإشاري ستأتيني فكرة أسطورة الأصبعيات وسواء كانت هذه الحدائق الموسيقية مُنظمة حسب جمالٍ اصطناعي أو ملصقة بالمدينة كشيء فائض على الطبيعة، فإنها علامة على سنَّة الحياة، أي حماية الغريزة الحسية للبقاء.

كان التعب قد نال منَّا قبل أن نصلَ عند سِفين وأولْريكا سفين صديق طفولة لينا. قدَّمته لي بطريقة مَرِحة وحيوية: «هذا سفين، أحد أفضل أصدقائي وأحد معالمي الجيدة في هذه الحياة.» استدارَت نحو رفيقته: «وهذه أولْريكا وحيدة زمانها.» كانت هذه الأخيرة جالسة إلى حاسوبها الصغير. فنهضَت، قبَّلتُها وحيَّتني، ثم عادت بسرعة إلى مكانها لتُكمل نصًّا يلزم رقنه وتصحيحه واستخراج نُسَخ منه بسرعة. كانت أولريكا راقنة.

لينا كانت على حق. فهذا الزوج يفوح بحفاوة طبيعية. أما الشقة فقد كانت منظَّمة لاستقبال الشخص الأقل تعودًا على نظام محبوب وعلى جو شديد الحميمية، بحيث إنَّ التوزيع المُختلف للغرف ولتناغمها الفضائي كان ينمُّ عن روح تعاونية عالية.

هكذا انقسم المشهد إلى قسمَين هناك لينا وسفين في زاوية من قاعة الاستقبال، وأولريكا وشاشتها في الجانب الآخر. كان نظري مشدودًا إليها. بالإمكان إضافة مقطع غير مُنتظر إلى هذا الوصف الفوري؛ ذلك أن روائيِّي القلب، الحسَّاسين للصدى العاطفي لكل منطقة من مخيلتنا، يحفظون درس حبِّهم وتحابِّهم، فهم يعرفون كيف يصُوغون، انطلاقًا من جزئية بسيطة وغير قارة، وضعية جديدة كل الجدة.

حلَّ وقت الشاي. تناولت أولريكا فنجانها واعتذرَت من جديد، لتعود للجلوس إلى حاسوبها، كنت أراها شبه جامده وهي مُنهمكة في عملها، ولم أكن أرى يديها. تأملتُ قدمها ورقَّة ملامحها. كانت لينا وسفين يتحادَثان بمرح عن ماضيهما المشترك. كنتُ أسمع بعض كلامهما، شاردًا من جرَّاء ولادة خرافة جديدة، هي خرافة الأصبعيات.

اقتربت من أولريكا. كانت تُعاود كتابة نصوص مخطوطة. قالت لي: قرِّب مقعدك. يُمكننا أن نُدردش معًا، فهذا شيء لا يُزعجني.

الأعيُن والأصابع تَشتغل بتسلسل. خمسة حروف في الثانية. يحدث أحيانًا أن أتلفِن وأنا أرقن. فأنا أملك وكالة في البيت، خاصة بخدمات مُتعدِّدة مثل معالجة النصوص، التصوير السريع، التصفيف الضوئي، التنظيم الطباعي. وبحوزتي أيضًا طابعة. وأقوم من ناحية أخرى بكراء أجهزتي، فهي تصبح مُتجاوزة بسرعة. نعم، تَعجب لسرعتي. إنه عمل سهل ومرهق معًا، لكني أحبه. فهو لعبة تُهدِّئ أعصابي وتمتصُّ قلقي.

– لكن القلق يعود!

– طبعًا، أنا أُنوِّع دائمًا من أنشطتي. أمارس التزحلُق على الثلج أو الجليد في الشتاء. أما في الصيف فأمارس السباحة كثيرًا، سواء في المسبَح أو في الهواء الطلق.

كانت تركب وتُصحِّح وتُعيد التصحيح بسهولة فائقة. ظللت أمامها مشدوهًا، ففي هذه الظروف بالضبط، وأنا أنصت إليها، بدأت أسطورة الأصبعيات تأخذ صورتها النهائية في مخيِّلتي. كانت أولريكا تطرز الزمن؛ تشبكه وتحلُّ تشابُكه وهي مُنغلِقة في منعزلها.

فكَّرتُ في نساء الماضي أمام مَنسجهِنَّ، قربتُ منها مقعدي، كانت أولريكا تنتظر مني مجرد حركة بدء، وصدرت مني هذه الحركة أخيرًا: أنت سحر أبيض وأسود.

– هناك مثل سائر نرويجي يقول: «إذا حكَّك أنفُك فهناك أحد في انتظارك، وإذا حكَّتك أصابعك فهناك إنسان يدخل المزرعة، إذا كانت أصابع اليُمنى فهو رجل، أما إذا كانت أصابع اليسرى فهي امرأة.»

وللتوِّ تغيَّر حالُ أولريكا. وتغيَّرت معه نبرة صوتها. كانت تحبُّ الخرافات. وأنا أصبت منها، وبمزاجية خالصة، ذاكرتها الأسطورية.

– لقد سمعت عنك من قبل.

لم أُحرِّك ساكنًا. لكني اضطربتُ حين اقترحَت عليَّ هذا الاقتراح الغريب:

– هل تُريد أن أحكي لك قصة حياتك الخاصة؟

وبينما أنا أُحاول ضبط نفسي، أدركتُ في لمح البصر شطحاتها الخرافية.

– فليكن ... احكي لي قصَّتي.

– زعموا أنكَ وُلدت مرتين، الأولى في السماء والثانية على شاطئ نهر النسيان. ورثتَ طبعَك المتقلِّب عن ولادتك الأولى، أما عن الثانية فقد ورثتَ حبك المجنون للسفر.

تمَّ السهر بعناية على نموِّك في طفولتك. كنتَ تعيش على ظهر كوكب في قلب أبوَيك المسحورَين. تعلَّمت من أمك فنَّ التأليه، وعن أبيك أخذت كيمياء الكلمات ونظامَها وفوضاها.

كبرت في عالم خاصٍّ مليء بالحوريَّات والملائكة. وبينَهم بلغتَ سنَّ الرجولة. أليس كذلك؟ وبما أنك كنتَ عاشقًا للشَّهوة، أنشأتَ تجمعًا تعليميًّا للتخاب. كان تجمعًا مؤسسًا على الذكاء ووفاء القلب. وأصبح كل شيء مُعجزًا.»

تغيَّرت سحنتُها من جديد. كدتُ لا أتعرَّف عليها. تابعَت دون أن ترفع عينيها عن شاشة الحاسوب: أتحدَّث إليك وأنا أُلاعب ملامسَ الحاسوب. فأنا ألعب بأوراقٍ مكشوفة أو محجوبة. كما تشاء، أُمسك برموزها وبرنامجها وسننها وأرشيفها. إن ذاكرتك نفسها مُختزنة هنا، ونظرتك قد تمَّ امتصاصها وإعماؤها. أنت ترى من دون أن ترى وتسمعني من غير أن تلمسَني. أقودك من أرنبة أنفك. ألفُّك وأفكُّ برمجتك تجاهي وتجاه سفين. وربما لينا أيضًا. إنني، كما ترى، واقعة تحت تنويم مغناطيسي.

لم أكن متأكدًا من نومها المغناطيسي. كنتُ قد نسيت الآخرين وحديثهما. غمَرني تعبٌ مفاجئ حين استعادت أولريكا وعيي بدون جهد يُذكر. تحكَّمَت فيه بحذق فائق:

– لنَعُد إلى قصتك، أو بالأحرى لنَعُد إلى مُراهقتك، سامحني على صراحتي، سأمحو مراهقتَك وأضعها على هامش الشاشة، أكتُب مصيرك ثم أشطبُه. أتحكَّم في عينِك وصمتِك بمجرَّد لمسة أصبع. يدي بصيرة وأصابعي عرافة.

قالوا بأنك نزلت إلى الأرض وعليك وشاحٌ أسود. كان غامضًا ترحالُك من كوكب إلى كوكب ومن نبتة إلى أخرى حتى ظهورك أخيرًا في مدينتنا. من أين يأتيك سحرك الغامض هذا؟ وكل هؤلاء النساء اللواتي فتَنْتَهنَّ واللواتي هجَرْنَك، واللواتي عُدنَ واللواتي هرَبنَ مِن سحرك؟ يا له مِن سَراب يا صديقي العزيز! أخطأت قارَّتك والقلب الرهيف، تُحلق في هواء الزمن وتُسمي هذا فنًّا! هل أنت كائن ممسوس؟ لكنك مسكون بمَن وبم؟ على الأقل ليس بي أنا. فأنا ولدت على نجمة أخرى، نتيجة خطأ طبيعي ولسوء تفاهُم في الخطبة بين أمي وخطيبها وصديق خطيبها. أمي مِن أصل فينلندي. كانت ذات عينَين مغوليتَين وهيئتها ذات كبرياء خاص. امرأة تُحافظ على المسافة الضرورية مع الآخَرين، قالت يومًا لأبي: «تعالَ. كُفَّ عن المعاناة. وعن الارتماء في أحضان الفراغ.» وأنا وُلدت في هذه الوضعية.

– أيَّة وضعية؟

أثر فيها سؤالي. حدقت فيَّ بقوة. قلتُ لها بنبرة ازدراء: أنا لستُ مرآةً لك.

– بلى ... أنا أتخفَّى أمام الشاشة، أُبدِّل ملابسي حين أكون في العمل، وبدون مساحيق، بدون زينة أو عطر، ألمس الآلة، أضع عليها اليدَين وأقترح على نفسي كلمات وجملًا. وكلَّما هدأتني السرعة كلما غدوت كائنًا آخر. مرة سخر مني سفين. حدثته عن نشوتي الإلهية. فأنا عرافة مُصطنعة.

لم تكن اللعبة قد انتَهت. أمسكت بزمام الأمور:

– سأحكي لك قصَّتك الشخصية.

– زعموا أنَّ جيرارنمر قد وُلد أسمر بعض الشيء. لهذا فهو عاش في هناء وإيمان. نما وسط الحرب الباردة، في مناخ مُعتدِل. وقد فتح هذا المناخ ذهنه للخمول. تعوَّد جيرار أن يكون هو نفسه وذلك بإعطاء نفسِه دروسًا في التواضُع. عرف البؤس والمهانة وفرحة مصيرِه. كانت صرختُه الأولى أليفة، وعوض أن يُغني تمرَّن على فن الكبرياء. كبرياء الكلمات. وهي عقلية كان يُنكرها عليه ذووه. حفظَ عن ظهر قلبٍ كنوزَ الأدب العالَمي وفن استعمال اللغات والأساطير والمجازات.

قالت لي أولريكا وهي تُقهقه ضحكًا.

– لكن هذه سيرة حياة.

هل نسينا أنفسنا؟ أصابني الاضطرابُ من الجهة الشعثاء لهذه الحكاية المزدوجة. وأنا أنهض، لامسَت يدي نهدَها الأيمن الذي انتصب أمامي قوامُه. هل لامستُها خطأً أم

سهوًا؟ كل يدٍ مهتاجة تمتدُّ في الفراغ تسقط في تيه اللحظة، دليلها في ذلك تشنُّجها. وللتوِّ قيَّدتُ يديَّ وساعديَّ الممتدَّين ومعهما شهوانيتها المُستعِرة.

في هذه اللحظة نهضت لينا. حرَّرني وقارها من ثقلي، وتضبَّبت الرؤية أمامي. ابتسمَت لي وأخبرتني أنها ذاهبة لاقتناء هدايا للعمَّة فينا وستعود بسرعة. وافقت بحركة من رأسي. نادت على سيارة أجرة واختفت.

للمرة الأولى وجدتُ نفسي أمام سفين. ناوَلني جعة دنماركية تحمل اسم «هاملت». شغل أسطوانة وجلس أمامي.

وما كاد يشعل غليونه حتى بدَت لي النغمات الأولى ذات تعبير محرج بالرغم من أنها أليفة بالنسبة لي. تعرَّفت فيها على توقيعات لإريك ساتي وعلى ارتجالها المُصطَنع. تتحوَّل هذه الموسيقى، بعد أن يتدخَّل الساكسوفون في مقدمة قصيرة، إلى موسيقى صالونات ممزوجة ببحث عن اللانغمية وبالحنين إلى البلُوز.

ملأت هذه الموسيقى الفراغ الذي تركَتْه لينا. فقد صاحبَتْنا لتخلق بينَنا جوًّا من الثِّقة والألفة قد يكون غامضًا، لكنه على كل حال مُنشِّط. وعوض أن تتناثَر هذه الجملة الموسيقية في هشاشة اللحظة فإنها بلوَرت فكري في خط حلمٍ واحد. وبما أنها تلَت نقاشًا حادًّا ونزقًا، فإنها كشفت لي عن القناع الصوتي لسفين، وعن عواطفه وحساسيته من غير أن يتمَّ بيننا حوار مفروض.

كنتُ قد غفيت قرب سفين حين برَزَت لينا وسط حصتنا الموسيقية من غير أن تدقَّ على الباب. كانت الأسطوانة لا تزال تدور. وعُدنا معًا نحو ستوكهولم الكبرى.

حين نتمشَّى طويلًا في مدينةٍ كُبرى فإننا نغدو كشَّافين للرؤى؛ فالنظرة لا تُلقي بثقلها على الأشياء وإنما تُلامسها ... تُمسك بشكلها وتجعل منه شكلًا خالصًا، تُحركنا المناظر الحضرية المتغيرة. أحيانًا تُخفِّف من سرعة الخَطو. والتعب يمنح للمَشي جلالًا موسومًا بالحدَّة. تقيس أفضل حركة الناس وانتقال الخبرات وتبادلها. إنها سرابات معمار مُتحركة. تفرغ المدينة أحشاءها وترحل من تجمُّع لآخر. تمتد ستوكهولم تبعًا لمبدأين؛ بساطة في الشكل معتدلة وحادة، مرتبطة بهندسة تُبرقشها التلاعبات الضوئية. أما خطوات السويدي فمشوبة بإيقاعية يخترقها مزاج صلب لا شكَّ أنه مُثقَل، بذاكرة ثلج وجليد ومطر مُتطاير.

في المترو، الذي كان يُقلُّنا إلى «بروما»، أسررتُ للينا الصامتة: «كنتُ في كاراكاس حين تمَّ تدشين أول خط مترو. كان صمت خارق قد أصاب المشاهدين من أمثالي. وقد فسَّروا

لي فيما بعد أن السكان المعروفين بذلاقة اللسان قد ظنُّوا أنفسهم في كنيسة. لقد عادوا إلى طفولتهم المسيحية. ثم تمزَّق الصمت وعاد للناس ذلَقُهم المهور بالجعة والويسكي والروم بالكوكا (كوبا الحرة).»

– نعم لقد تذوقتُه في نيويورك.

تابعت لينا قائلة:

– سفين رجلٌ ذو موهبة عُظمى وأنا أُعزُّه كأخ. كأحسن أخ، أنا التي لا أخ لها. هل تعرف؟ العمة فينا هي آخر فرد في القبيلة. فقبيلتي اليوم مشتَّتة بين اسكندنافيا وأستراليا والأمريكتين. وأنا أصبحتُ مُضيفة بالعدوى والوباء الجماعي، لمجرد أن أظلَّ وفية للقبيلة. ولدت في البادية في اسكانيا. مات أبواي الواحد بعد الآخر. كنتُ بنت السابعة آنَذاك. ثم طال موكب الغائبين. من فصل إلى فصل؛ أعمامي وعماتي ثم ابن عمٍّ كبرتُ وإياه. أصبحت من غير قرين أو أبٍ أو أم، وبدون أخٍ أو أخت. العمة فينا هي التي ربَّتني في «بروما» في البيت الذي ستراه بعد قليل. العمَّة فينَّا تسهر على ذاكرة الموتى. إنها تحافظ على بقائها. لا أدري إن كانت ستموت قبلي، لكنها لا تزال صامدة وهي ابنة الواحد والتسعين.

في الطائرة، أفكِّر فيها كثيرًا. تأتي معي العمَّة فينَّا مرةً كل سنة إلى نيويورك. ومن هناك تتجوَّل في أمريكا مُتنقِّلة من دولة إلى أخرى. تصل الرحم مع الأقارب؛ أي مع قبيلة الأندرسون. وهم مُهاجرون من زمنٍ بعيد. في أحد الأيام أرَتني العمة شجرة العائلة. وكل يوم تقضي بعض وقتها في الكتابة إلى أناس في جميع أنحاء العالم. كان سفين يسكُن حارتنا. كبر معي. كان كثير الشرود في المدرسة مما جعل نجاحه في حساب المستحيل. يدخل الفصل متأخرًا ويكون أول من يُغادره. كنا نقضي الصيف كله معًا. يا لها من حفلات! خاصة في الليالي المُقمرة. وعند قرع الجرس كنا نتسلَّل في الظلمة. كان سفين يداعبني.je l’avais sauté (لقد ضاجعتُه)، تقولون هكذا بالفرنسية. أليس كذلك؟

كنا نُهيِّئ لأنفسنا سريرَ زواج قبل أن نتعانَق وننام. سفين ذو مزاج غريب. كان يشكو من الاختناق والشلل. وكنتُ أمازحه وأُداعبه. كنا نُصاحب أبوَيه إلى النزهة أو الصيد في بحيرة صغيرة ذات مروج، موجودة في قلب الغابة. لم أكن أحسُّ بالخوف من الغابة أو حيواناتها، كنتُ أرغب في الارتعاش من النشوة، لكنَّني لم أنجح أبدًا بسبب نهديَّ الصغيرين. فهمَ سفين ذلك. كان يمسك بيدي ثم يضع سبَّابته على فمي وعضوي. لم يكن يرغب في إكراهي أو ترهيبي بحركاته المتوترة. كان بالكاد يتحرَّك فوقي. كان سفين يتقلب في نومه. وأنا أتساءل: هل بالإمكان التمكُّن من كابوس ما خلال المنام؟ هناك من يزعم ذلك. أما أنا

فلستُ واثقة من ذلك. كان سفين يفيق وقد غمره الشحوب. يَحكي عن شخص مجنون أو مخبول يتأمَّل الماء إلى الأبد. ينظر إلى الماء والنجوم والأرواح الشبحية التي تأكل من بين يدَيه. كان ينهض من نومه ويُخبرني بروعه. خوفه كان كبيرًا أو سماويًّا. وكنتُ أبكي على وسادته. أُداعبه ولا أدري كيف. لكني كنتُ أصرُّ على تقبيل أنفه أولًا. الأنف قبل كل إجهاش بالبكاء.

كنَّا نضيع وسط الليل. أتذكر جيدًا أنه صرخ مرة بعنف أفاق معه الكل. كان يَرتعد. لا حمى، صراخ غريب فقط. أفي هذا العمر يكون ذلك؟ قال لي فيما بعدُ إنه كان يتخيَّل أنه يعيش مع الأشباح. خاصة تلك التي تتنكَّر ولا نعرف معها هل يتعلَّق الأمر بميت أم بحي. أحبُّ أولريكا. هي التي وضعت حدًّا لذلك. إنها شبح جميل وحقيقي.

– شبح حقيقي؟

– نعم. كادَت أن تموت اختناقًا خلال الوضع كنَّا أنا وسفين نَختلِس من أبوَيه قاربهما. نَنساق مع التيار مُتفادين الأقصاب المائية. كنا نتَّجه دومًا وأبدًا نحو الشط الآخر. هناك تُوجد قرية أخرى، البداية الجديدة للعالم. كان الليل يمرُّ ويُعاود مروره على وجهَينا. سفين كان ولا يزال رائع الجمال. مزيج من النار والرماد. قوة شيطانية. كان يمارس الاستمناء على مرأى مني. كنتُ لا أتجاوز الرابعة عشرة، وكان هو يشرب الجعة. نعيش حالة عُهر. في ذلك العمر، كنا قد قَلَّبنا المسألة من كل وجوهها. يُداعب خصري وعجيزتي وحلمتي. يَمتطيني من قرن لآخَر. هذا ما كان يدَّعيه. كنا نَنسى أبوَيه والعمة فينَّا. هم أيضًا يتركوننا لأنفسنا. هم المرضى والموتى والمُحتَضَرون. كنا في الشتاء على الأخصِّ نَنغلِق في ملذَّاتنا السرية. والعمة فينَّا تحميني. هل كانت متواطئة معي؟ نعم. لكن بحِشمة ووقار. هي نفسها كان لدَيها عشاق يتبدَّلون أو يغيبون مع الزمن، وحسب توالي الأمطار والرياح. وفي فصل الجليد القارس تحتفظ العمة فينَّا بوشاحٍ لكلٍّ منهم. لكلٍّ وشاح لونه وحبَّة ذكراه. مات كل عشاقها، وها هي لا تزال تحيا بعدَهم بمرحٍ، هي ذي أمي الثانية.

صمتَت لينا، وفي كل محطة مترو كنتُ أخال أنها لا تتوجَّه إليَّ بالحكي، وإنما إلى إنسانٍ آخر، ربما سفين. كان يُقابل كل محطة فصلٍ من فصول طفولتها. نبرة صوتها منفرجة، تساءلت إن كانت قرأت «سوناتة كروتزر»، التي يحكي فيها تولستوي قصة رجل خانَته زوجته. يكون الرجل في حوار مع غريب في القطار. وفي كل محطة يكون الكاتب قد خلص من فصلٍ من فصول الحكاية. أحسستُ بالملل عند قراءة هذه الرواية. ربما كان هذا الانطباع يعود بالأحرى إلى الخيال الروائي وإلى الولَع الثَّقيل لهذا الكاتب، المناصر للإصلاح

الزراعي، بالتخييل. من المؤكَّد أنه انطباع لا يعود إلى قطارات القرن الماضي. فلكلِّ وسيلةِ نقل جنسها الأدبي الملائم.

المُهم أن صوت لينا كان غير قابل للتعويض. الصوت؟ ليس من مكتوب يستطيع أن يعوض نفسها ونبرتها وتموُّجات صوتها. وإذا كان من المؤكد أن الكتابة بالنسبة لبعض المؤلِّفين هي، إضافة إلى التشويق، انتظار الوحي المعجز، فإنه ليس أقل صحة إن هذه المعجزة لن تقع بدون دقة في الشكل. لست من مؤلهي القراءة ولا من المفتونين بالكتابات. فأنا لا أحبُّ رواية إلا إذا كانت مُثيرة لحياتي الحاضرة. وسيَستطرد ألبرتو في المنحى نفسه:

– لو كنتُ كاتبًا لضمنتُ لك الكتاب الأطول مبيعًا، على وزن شربة طويلة، ولربما لقرن كامل، لك ولذريتك.

– وبعد ذلك؟

– سأوصِّل هذا الكتاب بقناة مشتركة تكون مُتوفرة على لعبة ذات وجوه مُتعدِّدة من جرائد وإذاعات صور وتلفزات وأغانٍ وترجمات، ثم أعرضه للبيع في الأسواق بشكل استراتيجي. عدد من البلدان المختارة بدقَّة. سيكون العنوان مصحوبًا بشعار مطبوع على فضاءات أخرى كالأقمصة الصيفية، ربطات العنق ... وربما كرات المضرب، ولم لا؟ أنا مُستعد لأن أقوم بفضيحة إذا لزم الأمر.

– والنَّص. ماذا ستَفعل بالنص يا ألبرتو؟

– سيكون هو هو، لن تُغيره الأبدية، أبَدية أيًّا منا هذه. هل فهمت؟ لا تنسَ أبدًا ما يلي: ينبغي على الكاتب أن يكتب على شاكلة الإنسان الأول، أي إن يستهدف الجوهري وصياغة الجوهري.

– إنها حلم، هذه القناة المشتركة.

– بالعكس، إنها شيء يتعلَّق فقط بحُسنِ تدبير سنده توليف مالي فعلي.

لم تكن ضيعة العمَّة فينَّا بعيدة جدًّا عن المحطة. فللوصول إليها ينبغي اتباع طريق ضيق محمي بصفٍّ من الأشجار كان بعضها مُزهرًا. وراء الأشجار، النوافذ مُغلَقة بالرغم من الحر غير العادي. كانت «برُوما» تشي بحياة سرية. ففي حديقة البيت توجد شمعة مشتعلة داخل فانوس زجاجي. إنه طقس تقليدي لا يزال ساري المفعول، وهو شكل من أشكال الأماني الطيبة وترحيب بالأهل والأصدقاء. كانت فينَّا واقفة على عتبة البيت تنتظرنا. لكن ما الذي حدث لي؟ بعض الهلوسة من غير شك. خيل لي أن الشمعة انطفأت ثم اشتعلت

مرتين. هل كانت العمة فينَّا مُتواطئة مع روح النار؟ أي مجمر خامد كانت تلك الروح الشبحية تحضن في هذا البيت الذي قد يكون مسكونًا بالأرواح. قبل أن أتعرف عليها، كنتُ أخاف أن أجد نفسي أمام كائن مُخرف، مقعد ومخبول قد اقترب أجله. لكن العمة فينا كانت بالعكس امرأة مدهشة. لم يكن ظهرها المقوس شيئًا ما لينتقِص من حيويتها. كانت واقفة، بشوشة، تُراقب تقدمنا نحوها.

منحَتنا العمة وجهَها المنعش وعينيها الوضَّاءتين الضاحكتين وأنفها النافر، وتلك العلاقة الصيفية التي ظلَّت محفورة في ذاكرتي: شعر ثلجي شُعِّث بدقة. كانت فينا نزوة خالصة للطبيعة!

تعانَقَت لينا وعمَّتها بحرارة مُفرطة، ولم تصبر فينَّا على التساؤل وهي تتطلع إلي: «لكن من هو هذا الرجل يا صغيرتي؟ هل أحضرتِه معك من نيويورك داخل أمتعتك؟»

– «لا. لا. بالأحرى داخل مقصورة الطائرة. أقدِّم لك جيرار نمر. مُسافر مجهول الهوية.»

ربَّتت فينَّا على كتفي. هكذا، وفي لمحة بصر أدخلتني في نظامها وأسطورتها الشخصية.

دخلت في اللعبة. كانت لعبة سَهلة طالَما أنَّ جذل هذه المرأة العجوز يملك حكمة حيَّة تتجاوَز كل تخريف مُقنَّع.

قدَّمَت لها لينا كهدية علبةً من الحاجيات جلبَتها لها من نيويورك عبارة عن مجوهرات اصطناعية، حاملات نهدَين من نوع «بلاي بُوي» الماجنة، تماثيل صغيرة قابلة للتركيب، لعبة ورق إلكترونية وكل أنواع اللعب المُختلفة، إضافة إلى شيء غريب يتمثَّل في ساعة ذات أربعة موانئ تشتغل حسب الفصول الأربعة. أدركت أن فينَّا كانت جمَّاعة لكلِّ ما هو تافه وعابر. لاحظت ذلك من الطريقة التي تجسُّ بها اللعب بنَوع من الخوف. تُمسك بها أخيرًا وتضعها بحذر فوق خزانة زجاجية.

بعد ذلك تمَّ كل شيء بسرعة. مشَت لينا وراء عمَّتها وهما تُدردشان. ثم غابَت داخل غرفة، ثم داخل أخرى، متوقِّفة بين الفينة والفينة في الممر. ولجتُ المطبخ أخيرًا لتعود بنفس الحركة الصاخبة.

عندما حان وقت الجعَّة كان كل شيء قد عاد إلى هدوئه. سيتبيَّن لي فيما بعد، وتبعًا لمربَّع سِحري معيَّن، أن كل يوم قضيته في رفقة لينا كان موزَّعًا إلى أربع لحظات. تتلو القهوة (في الصباح المتأخِّر طبعًا) استراحة الشاي ثم الجعة قبل تذوُّق الخمور العتيقة؛ وذلك حسب التحولات التدريجية لنبيذ عسل مُسكِر.

قدمت لنا فينَّا الجعَّة في سطيحة البيت. كان الليل قد بدأ سُدوله، وريح خفيفة تحمل الأريج الليلي تُصاحب ثمالتنا اللحظية. هكذا أخذ الحديث منطلقه من كلمة نبسَت بها لينا بدقة وسعادة. كانت لينا وعمَّتها تُناقشان بحُرية غير معهودة. أما أنا فقد نهضتُ لأقوم بجولة في الحديقة الصغيرة.

لستُ ممَّن يُحبون النباتات حبًّا صوفيًّا. ذلك أن بي حساسية تجاه غبارها. وهي حساسية جعَلَتني أنسى أسماء النباتات، وأفكِّر بأنَّ هذا الجفاء الفَصلي يسرق من لغة حبِّي معجمها النباتي. كيف امتدح، في حالة كهذه، زهرةً ما؟ عند عودتي أحسَّت فينَّا بمأزقي: «اسمع يا جيرار، لقد اشتغلتُ حياتي كلها تقريبًا في حدائق عمومية أو خصوصية. ألست شخصيًّا مُستنبت زهور؟»

وللتوِّ أرَتني ساعدَيها العاريَين ورِجلها اليُمنى التي وضعتها لحظة على الطاولة. لقد وضَعَتها بالطريقة الأمريكية. كنت ذاهلًا، فحبَّات الصهبة كانت تبدو فيها متنوعة جدًّا، خِلتُ معها في تلك اللحظات من حياتنا أن أشكالًا جديدة من الفِطريات تنبت على هذا اللحم الوَردي، وهذا البياض الهَش.

لم أعُد أتذكَّر في أيِّ لحظة من الحديث كفَّت لينا عن الإنصات. بدَت خائفة. كانت عيناها تَلمعان في الفراغ وعليهما مسحة من التعب. غيَّرَت مجرى الحديث بإعطائنا درسًا في الحياة:

– لقد تعلَّمت شيئًا في هذه الحياة هو السعادة التآزُرية بين الأرض والماء، والماء والثلج وبين الثلج والجليد. هذه هي السويد. تتحدَّثون عن حركةٍ نسائية، فلمَ لا يستمرَّ النساء والرجال في اتِّباع دورة الطبيعة؟ لا تنسَ يا جيرار ما سأقوله لك: ابنتي لينا مشاكسة ويَصعُب ترويضها.

بادرتُ إلى إعلان رغبتي في الانصراف. أشرتُ إلى لينا بالانسحاب. استأذنَّا في الانصراف فأهدَتنا فينَّا فطيرة سمَّان بالعرعر وشيئًا مِن فاكهة العلِّيق ذات المذاق المركَّز، نظرًا لقلَّة المطر، كما وضَّحَت لنا ذلك.

كانت تلك هي الليلة الأولى التي قضَيتُها عند لينا. ليلة ستتكرَّر بغير انتظام. إنه لا تزامُن الليل والنهار.

كانت مُضاجعتها تتطلَّب بروتوكولًا ضد الحمل لم يَسبِق لي أن عرفتُه مع دونيز ولا مع عشيقاتي. وضعت حِجابًا واقيًا ومرهمًا خاصًّا. كان بروتوكولًا مُزعجًا بالنِّسبة لي.

ربما لأنه كبتٌ في الرغبة في إنجاب طفل منها. فدخلت حُريتي النزقة والمتوحِّشة في مواجهة اختيارٍ ذي طابع لوثري، يدعو إلى المسئولية، لكن بشكلٍ صارم.

قد أكون وضعتُ الأصبع هنا على لحظة حقيقية أو على ضعفٍ في فُحولتي أو على نُقطة عمياء من رغباتي! لكن، وبالرغم من هذه الوقفات، كانت لعبتُنا الشبَقيَّة تُتابع طريقها.

ومهما كان الأمر، فإنَّ إحساسًا بالقطيعة كان يتخلَّل علاقتنا. قلتُ لنفسي بأن عاطفةً كامدة مزروعة في جسدها، ومِن جسدي يَنبع بحثٌ غير مُجد عن شَهوة سِحرية. لقد دفَعني فن الشهوة دائمًا إلى امتهان الحلم المطوط لعضلاتي ولكلِّ جسمي المُتهدهِد، كما لو كانت المضاجعة لذة مُنغلقة لا تقبل الانفتاح. هذا النِّسيان لنفسي، وهذه اللحظات الأبدية تكون أحيانًا ناتجة عن الخوف والدهشة. كنت مشدودًا إلى الشهوة السحرية للينا. كانت شهوة تعيشُها بمرح، بدون قناع أو شذوذ أو مُعاناة. وحين يتفجَّر صراخها يَنطفئ بسرعة في جوف الليل.

كان يوم احتفال بالنسبة لي حين قرَّرت لينا استبدال الحِجاب الواقي بالحُبوب المانعة للحمل. كانت لديها رغبة في تجريبها. وبهذا العداد الداخلي، بدَت فيما بعدُ وكأنها تَبلُغ مُتعة أكثر انتظامًا. أعني انسيابًا مُحايدًا للَّذة، ونشوة بدون طِفل في الأفق، سيُسرُّ لي ألبرتو، في ميلانو، بمبدئه الجنسي:

– للجنس المُعاصر تاريخيَّته وإكراهاته. ذلك أنَّ الحجاب الواقي والكابُّوت يَرتبطان بحُرية في المعاشرة لا تخلو من مراقبة واحتجاج. وترتبط الحبوب المانعة للحمل بعصر الفجور، أما وباء السيدا فيُقابله العود المستحيل للزواج كبديل. بينما أصبح الأمر الآن مسألة حياة أو موت؛ إذ يلزم عاجلًا تسويق كابُّوتات جماعية في أوروبا. أليس كذلك؟

رسائل متقاطعة

ستوكهولم. ٥ يونيو

دونيز، هل ينبغي عليَّ تقديمُ اعتذاراتي؟ نعم أدين لك ولنفسي أيضًا بذلك. كان ذهني شاردًا إلى أقصى حد. لا أعرف أحيانًا كيف أُخاطبك. لذا أظلُّ مُتأثرًا بدهشة ضَعفي وغياب تبصُّري ورويَّتي. هل لاحظتُ أنَّني منذ زمن أكتب بسُرعة فائقة؟ وتغدو كتابتي مليئة بالأخطاء الإملائية. فعلاماتُ الشكل تتداخَل وتتمازَج وتأخُذ مناحيَ غير مناحيها، مُتابعة، فيما أعتقد، مزاجي الجموح، أما علامة التعجُّب فتُصبح في يدي مختالة متمايلة.

عاد إليَّ الهدوء. أين وقفنا في حديثنا؟ كم هو الانتظار مُنهك! قررتُ أن أبقى هنا حتى نهاية غشت. وسأعود لعملي بعد ذلك بالضبط وكما هو مُنتظر. سأظلُّ هنا لفُضول ذهني، كما أعتقد ... بهدف اكتشاف هذه المدينة وأخذ الوقت الكافي للتجوال والتسكُّع البطيء على شطِّ المياه، سأبقى هنا لاكتشاف بلدٍ بكامله.

لقد تعرَّفتُ مثلًا على ألبرتو. إنه منتج سينمائي وتلفزيوني. رجل رائع ومِن طينة نادرة. ربما نُلاقيه معًا في باريس، تعرَّفتُ أيضًا على زوجَين سويديَّين غريبَين: سفين وأولريكا. فسفين شخصية بشوشة وغامضة معًا. بدَت لي أفكاره في البداية مُتشابكة ومرضية بعض الشيء. لكني الآن أستطيع استيعاب فكره المتميز بالدقَّة اللامتناهية. لقد أعاراني شقةً صغيرة في ملك أحد أصدقائهما أقضي فيها ما تبقَّى من إقامتي هنا.

من أين أبدًا قصة خلافنا؟ يا للبلادة! لا زالت الدهشة تغمرني حين أُفكِّر في ذلك اليوم الذي رأيتُكِ فيه تُقبِّلين بول في المطبخ. تراجعتُ خُطوة إلى الوراء وخرجتُ للتو. كيف أنظر إليك دون أن أرتعش. خارَت قُواي. كان محو تقزُّزي شيئًا قاسيًا عليَّ. أعرف، تعرفين أنه حدث عارضٌ شِبه تافه، لكن رُؤيتي تشوَّشت وعقلي أيضًا. ليس هناك من جسد يَمنح

للآخر بشكلٍ نهائي. هذه هي الرغبة ولا يُمكن اعتقالها وإخضاعها لقانون ارتباط حتى ولو كان عذريًّا. لكن أنتما الاثنان المتعانقان أدخلتما الهلوَسة إلى نفسي.

كنتُ كمَن فقَد إحدى ركائز هُويته. ركيزة ما انكسَرت. كانت لحظة الغيرة هذه مرسومة بألوان غير طبيعية. هل كنتُ شبحًا؟ بيننا نهضت مسافة قوية ولا محدودة. أحادث نفسي ونفسي وحدها. أما أنت فقد ظللتِ تُحبينني بنفس الخفة، ترقَّبتُ أن تتخلَّل القسوة علاقتنا. قسوة خفية راجعة إلى الخوف، لكن شيئًا من هذا لم يقع. وانحلَّت هذه الصورة الهذيانية لوحدها ببُطء. كنتِ تتركينَني أتحدَّث كما لو كنتُ أتحدَّث عن شخصية سينمائية.

شيء ما انكسر في علاقتنا. شيء غير قابل في الواقع للحل. لتتذكَّري أني فيما بعدُ وجدتُ نفسي في مواجهتك عاجزًا عن ضبطِ غضبي. كان غضبًا رهيبًا، ورغم سرعته وهياجه، لم يكن ذاك الغضب سوى ضياعي الأوَّل. كنتُ أنتظِر منك تفسيرًا مُهذبًا لما حدث، قادرًا على إيقاف عُنف إرادتي.

وللحقِّ أقولُ بأنَّ إرادتي غير مُتوازية، أما إرادتك فهي نابعة من امرأة رهيفة الإحساس وذات هشاشة تحكمها مُفارقة الانتظار والشهوة. أنا لا أستطيع يا دونيز أن أُحطِّم فيك كل ذاك الجمال ولا أن أطلب منك الاستسلام. فحريتُك ملك لك وحدك. وفوضى الرغبة؟ تلك اللحظة المجنونة من الغيرة كانت تكبُر في العمى والتفكُّك واستنزاف الزمن. لم يُفارقني اليقين في الحفاظ عليك بالقرب مني طوال حياتي، ولن يُفارقني أبدًا. إنه يقين صارم حتى في لحظات اليأس. وربما يغدو كذلك في لحظات إنكاري لنفسي، وفي استراحاتي العاطفية، أنا لا ألومك يا دونيز. فقط أصف تلك اللحظة. كيف ستتلقِّين هذه الرسالة وهذه الكلمات.

أنا الآن جالس في حديقة جميلة، أتأمل نصبًا لليني. والظل الذي يُصاحبني يشبه تشابُكًا زخرفيًّا من صنع زمن قديم. أحسُّ نفسي خاملًا إلى حدٍّ بعيد. منذ قليل، غفَيت قبل أن أكتُب لك، هل أنا مُحبَط؟ لا. ولكن فكري هارب ومُشتَّت. هل أنا حالم وعاشق لكلِّ جمال عابر؟ أنا مُتقلِّب، نعم، بالشكل الذي تُحبِّين. لكني وفيٌّ لذاك التقلب. «هل فهمت؟» غالبًا ما تُطمئنينَني بهذا الشكل. وأنتِ تَعرفين دهشَتي الكبرى أمام مُفاجآت الحب.

دفعني عملي إلى الحديث معك بكلام مُباشر أو بشكلٍ مجازيٍّ، والفارق بينهما غامض، لتتذكري لقاءنا الأول. أيَّة حيرة أصابتنا! لكن هذه الحالة هي التي تجعل من حياتنا الزوجية حوارًا عاشقًا ومبهمًا.

بعد ذلك تركتُ التدريس في الجامعة وبدأت بمُتابعة المحاضرات والمناظرات. في كل المناحي والتخصُّصات، هذا ما يقال عني. فهل مسَّ ذلك حياتنا؟ كان ابننا، وهو لا يزال صغيرًا، لا يملك أبًا؛ فالأب غائب على الدوام. لماذا تلك الأسفار؟ هل كان ذلك هروبًا أم إرادة عنيفة في التحوُّل المستمر؟ لا أدري. أجري وأجري؛ لكن يَحدُث لي الآن أن أمشيَ لصق الحائط.

كلَّما سافرت تمكَّنت من رُؤيتك بموضوعية. عرَضَت لنا مصائبُ أخرى مثل اليوم الذي عدتُ فيه إلى البيت بدون أن أُخبرك بوقتِ عودتي المضبوط نظرًا للفارق الزمني بين البلدَين. نسيتُ أن أُتلفِنَ لك. يا لها من مُفاجأة رهيبة بالنسبة لك ولي وللولد. تضبَّب كل شيء. كان الطفل نائمًا. ظللتُ جالسًا على سرير الراحة وأنا أهتزُّ من الانفعال، كما يُقال. كانت التلفزة قد أزعجتها برامجها المسبوكة على عجل. يا للعدد الهائل من القنوات، ويا له من خصاص مروع! بدأتُ في مشاهدة شريط سينمائي ميلودرامي. حكاية امرأة تخاف المسَّ بكبرياء زوجها، وتفعل كل ما من شأنه أن يجرحه. هي ليست مسئولة عن أيِّ شيء. تصوُّري هذا المشهد الذي لم ينتزع مني ضحكة واحدة. اعترف بذلك يا دونيز. كان عشيقها قد استُدعي خلال سهرة فاخرة. قدمته لزوجها: «جيمس، من معارفي الجدد.» غدا الزوج شاحبًا. قالت له: «كم امتقع وجهك!» ثم أضافت: «ما بك يا عزيزي؟» ارتعش الزوج.

– «لكن أنت محموم.»

– «حالة عابرة، سأبرأ خلال السهرة. لقد تعوَّدتُ على هذا.» هذه الجملة المُلغزة، جعلت العشيق يضجُّ بالضحك. ليس بإمكان أحد أن يُغير من نظرته ولا من ملامحِه عندما يجد نفسه في وضعية كهذه بين الزوج والعشيق الحاضرَين معًا. وأنا أيضًا لم أكن، في تلك الأمسية بالضبط، أملك القوة على الضَّحِك والسخرية.

انطلقت باتجاه المكتبة، لم يُثِر اهتمامي أيُّ كتاب. ثم (أرجوكِ احبسي أنفاسك) اكتشفتُ على أحد الرفوف رسائل. كومة من الرسائل. كانت الكتابة غريبة عليَّ، تردَّدت في قراءتها، ثم غامرتُ بذلك. وكلَّما توغلت في القراءة اكتشفت حياتك الأخرى. كان «عشيقك» حسَّاسًا لما أحبه فيك، أعني جمالك الذكي الموسوم بعزة النفس. كان يُقدم لك تحياته بأسلوب منقح نادر لا تشوبُه المبالغة، يبدو صادقًا في قوله، اقترح عليك الانفصال عن زوجتِه ليعيش معك. كان يحدثك كما لو كنتُ غير موجود، وكما لو كان ابننا يعيش في السماء. يا له من خطأ ارتكبه!

جعلَتني تلك القراءة ذا مزاج حالم. والغريب في الأمر أني قهقهتُ ضحكًا عند الانتهاء من قراءة الرسائل. أفاق الطفل وارتمى في أحضاني. حكى لي حلمًا رائعًا عن إنسان آليٍّ فنان. آلة تصنع الرسوم والتشكيلات والصور المتحرِّكة. ثم عاد بسرعة لنومه. هذا الحلم جعلني أتخوَّف على مستقبل الطفل وهذا الجيل الأصبعي.

لم أكن غافلًا طوال تلك السهرة. عاد إليَّ صحوي. كنتُ كمَن رمى عن ظهره غيابه، غارقًا في نسيان كل شيء. استمرَّت السهرة. لم أكن أعرف أين أنا في هذا الزمن الذي بدا لي لا نهائيًّا وضائعًا في أتون الليل. في الخارج كان الرذاذ يتساقط. ألقيت بنظرة على الشارع. كان خاليًا. كنتُ أبحث عن مخرَج لهذه الوضعية. فالبقاء على هذه الحالة اللامتحدِّدة الشكل، كان بالنسبة لي صراعًا ضمنيًّا مع شياطيني القديمة.

ومن دون أن أتهم نفسي بأية مخادعة أو حبٍّ للعذاب ارتميتُ عفويًّا على السرير، سرير الزواج. استحال عليَّ النوم. كنتُ إنسانًا أعزل وإن لم أَصِل كلية إلى الركوع أو الزحف مقتفيًا آثارك، سمعت نفسي أهمس بهذه الجملة: «قريبًا ستُصبحين حرة حرية كاملة.»

كان الوفاء في علاقتنا يمرُّ باختيار صعب من جهتَين معًا. وجدتني أمام هذه الحقيقة البسيطة: الحب فنٌّ للترميق بين الوهم والخيبة، بين اللذة والألم. فهل اندثَرَ حبي في صحراء الغيرة؟ وهل سينبثق مجددًا من ألمه نفسه؟ أنت، والحمد لله، مسكونة بهذه الرغبة، لكن لمَ هذه الحيرة والاضطراب؟ هل ستُرغمينني على ضبط نفسي والعدول عن قراري؟

قد أكون واقعًا تحت تأثير نوع من الانفصال عن الحياة، فحياتي الخاصة تربطني بالصرخة والضحكة وإشعاع النور. كانت تلك الليلة اختبارًا صعبًا لي، أرغمتني على عليل نفسي، شكرًا دونيز على هذا العمل الحاذق، شكرًا لليونة يدَيك وحركاتك الرشيقة العفوية.

أنا لا ألومك كثيرًا، على كل حال، فعلاقتنا مُستمرة، لكن كيف؟ أليس من المعقول أن نعيش في شقتين مُختلفتَين ومُجاورتين؟ أعتقد ذلك، ها حيث وصلتُ في تفكيري. لا أعرف ما أقول لك بعد ذلك، لك قبلاتي، قُبلة وديعة كما في الفن العذري، أليس كذلك؟

جيرار

باريس في ١٥ يونيو.

ما الذي تُريده مني يا جيرار؟ الانتظار! نحن لا نفعل سوى تأجيل معاناة طويلة. مرَّت الآن أكثر من أربعة أشهر، وأنا أهترئ، كل شيء غامض كما من قبل. وهذا شيء شلني كلية. من حسن الحظ أني أكبر مجددًا مع طفلنا الصغير. إنه يغمرني بالفرح. أجِبني: هل

ستحضر عيد ميلاده؟ يوم الأحد أخذت الصغير إلى الحديقة العمومية. مارسنا هناك لعبة مطاردة (في صيغة مبسطة). في طريق العودة حدَّق في عينيَّ مباشرة وقال: «هل يلعب بابا لعبة المطاردة؟» بلعت كلماتي، «أنت تلعب لعبة الهرب. أليس كذلك؟ ليس هذا مُماطلة ولا ابتزازًا، لذا لا تُخرج مخالبك. أحبك.»

دونيز

جعلتني هذه الرسالة البائسة أمتلئ حنينًا، يا إلهي كم أنا عبثي! وأية رغبة هذه التي تدفعني إلى جمع حاجياتي! أنا الآن في حالة ترقُّب. هل تفكَّكت علاقتنا بشكل نهائي؟ هل أصبح الوقت متأخرًا؟ أصبح لديَّ انطباع بأني مُستتر خلف حجاب أسود. هي تنتظر وأنا أنتظر، ربما كان ذلك كارثة أو شيئًا بالغ التفاهة. أصطنِع لنفسي شراكات عديمة الجدوى وأختلِق لها الاعتذارات. تُنهكني هذه الحالة؛ فتعليق ماضيَّ، ماضينا، شيء مُستحيل، بل إنه لا واقعي.

دونيز، باريس في ١٦ يونيو.

جيرار، أيامي مُظلمة وحمراء، هذا الصباح، نهضتُ وسط كابوس. إنه «حلم تعويض» كما يقال. مضغة قلق. وأنا ممزقة ومنخورة ومُشرحة بأدوات التعذيب. إني مُزركشة بنقط من نار. يكفي أن أفكر في ذلك كي تأخُذني الرعشة.

أنا الآن أتفهَّم بشكل أفضل النساء المصلوبات وضلالاتهنَّ الصوفية. هؤلاء الوَّليات، هؤلاء الصالحات المسكينات اللواتي تتمزَّق جلودهنَّ أو تُنتن من الوحدة. لكني لستُ من أصحاب هذا المنزع، ثم إني أحبك. أحبك إلى درجة إيلاجك في لذتي الخاصة.

لماذا فعلتَ ذلك يا جيرار؟ لم؟ ما الذي يَجعلك تشمئزُّ مني؟ قل لي الحقيقة. تحدَّث معي بتؤدة وبدون وجل. أنا أقبَلُك كما أنت. فما الذي تُريده بعد هذا؟ عشيقاتك لا أهتمُّ بهن؛ لتعرف ذلك! لن أهتمَّ بهن إطلاقًا. أنت تكذب عليَّ حين ترتادهن. اصمت! فأنا أحسُّ خياناتك لمجرَّد تغيُّر بسيط في صوتك، وكذا في تبدُّلات نظراتك الأكثر خفية. وفي التلفون أيضًا، بل خصوصًا في التلفون. أنت كتوم لأسرارك إلى درجة أبدأ معها في التخريف والزعيق، وحيدة وأمام الطفل اترك قناعَك وعُد لي كما أحببتك. إني أرتعش. ولتغفر لي وقاحتي. فأنا أودُّ لو أحافظ عليك. يا لها من غلطة ستكون. وإذن اذهب حيث يُملي عليك قلبك. انس نفسك واغرُب عن نظري. فأنا سأمحوك. ذات ليلة حلمت بشيء يخصُّك، يخصُّنا.

كنتَ تتمشَّى في مدينة خَرِبة، مدينة أشبه بواجهة زجاجية مُهمَّشة. كنتَ تعبُر طريقًا يشطر نصفين خطًّا من نورٍ شفَّاف وثابت. في يدك «والكمانْ». كنتُ أراك قبالتي، من بعيد، تتسكَّع على إيقاع موسيقى صامتة إلى حدٍّ ما. وفجأةً غبت في الضباب. ثم نزلت أمطار طوفانية غسلت المدينة. رفعتُ عيني قبل غيابك. رأيت في مكانك لطخةً تبدو زرقاء وتارةً خضراء. كنتُ أحس ببرد شديد بدأت أسناني تُطقطق معه. يا له من سحر أرضي وسماوي. حين أفقت أمسكت دموعي. نهضتُ ووقفتُ أمام المرآة. آنذاك وجدت نفسي أجهش بالبكاء لأني لم أتعرَّف على نفسي.

لا أعرف كيف ينام الشجر، لكني أعرف أني شجرة، شأني في ذلك شأن كل امرأة، وحين أنام تَنطلِق تفرُّعاتي وأمشي باتجاهك وأنا أُضاعف جذوري. ثم يأتي الكابوس ليُمزِّقَها.

نعم ... نعم ... رغبت في نسيانك، ولمرات عديدة. لكن، هذا شيء لا يخصُّك يا حبِّي الجاحد. أنت نفسك تقول ذلك، كيف الحديث إليك بدون تجريحك وبدون أن ألحسَ بلساني دموعك؟ أنا مُضطربة جدًّا من فرط صمتك. صمتك الذي يُحيلك إلى حجر، قل! أنا لا أتنازل أبدًا، إني أنتظرك، لقد تأثرت كثيرًا لكني شديدة الارتباط بك.

دونيز

باريس، في ١٦ يونيو.

الرسالة التي كتبتُها لك للتوِّ انفلتت مني. إنها عنيفة. وأقول لنفسي: يَلزمني المواصلة حتى النهاية. أنا الآن هادئة. أُقبِّلك بحرارة.

د.

ستوكهولم، في ١٦ يونيو.

دونيز، كتبتُ لكِ البارحة. أعتقد أني قلتُ لكِ الأساسي. واليوم، أحسُّ بحاجة إلى أن أُحدِّثك عن هذه المدينة. أتمشَّى كثير بحذاء «الكلاركس» الخفيف، وأستعمل جميع وسائل النقل. دعاني ألبرتو البارحة إلى جولة جوية في منطاد. تمتَّعت بمُشاهدة ستوكهولم في الجو. عناق رائع بين الأرض والماء، إنهما «مُتعاونان» كما يُقال هنا.

حكى لي ألبرتو ما يلي: «فهمتُ يومًا، وأنا أُحلِّق فوق أجواء نيويورك بالطائرة المروحية، لمَ تمَّ تزطير هذه المدينة من طرف السينما بشكل أفضل من الأدب؛ إذ لا شيء غير حركة الكاميرا يستطيع الإمساك بتلك القوَّة الهائلة وتلك الهندسة والسُّرعة التي للكائنات والأشياء.

ألبرتو كائن غريب الأطوار، ألحَّ عليَّ أن يُريني مخطوطًا عجيبًا في مكتبة عمومية. بدَت لي المحافظة، وهي سيدة عجوز، كما لو كانت خارجة للتوِّ من خرافات عتيقة. أسرَّ ألبرتو في حضرتها بحكاية هذا الكتاب الخارق: قيلَ إنَّ بولدازيس، وهو راهب من بوهيميا، حُكم عليه بالإعدام لتُهمة مجهولة، وإني على كل حال، لم أتوصَّل أبدًا إلى معرفة تلك الجريمة. ولكي يتُوب ارتمى في أحضان مُغامرة فيها الكثير من المبالغة، إنها كتابة أضخم كتاب في العالم في ليلة واحدة. وشرع الراهب في إنجاز مهمَّته.

قيل أيضًا إنه أدرك في مُنتصَف الليل أن هذه المُهمة مستحيلة، ومُنتصف الليل هو مركز الليلة الاصطناعية. نادى الراهب على الشيطان وأقام معه الحلف المعهود: إنجاز الكتاب مُقابل أن يبيع له نفسه. وقبلَ الراهب المسكين. وفي رمشة عين كان الكتاب المعجز قد تمَّ. وكاعترافٍ بالجميل قرر الراهب رسم صورة الشيطان وتأبيدها وسط الكتاب المُعجز. وهذا ما تراهُ أمامك.

لقد خلص الراهب جسده من الموت لكن رُوحه الملعونة ظلَّت تائهة من مدينة إلى مدينة ومن مكان إلى آخر. وفي أحد الأيام ركَع الراهب أمام نصب لسيدتنا مريم واعترف لها بحلفِه مع الشيطان. وبفضل تلك الصلاة جاء خلاصُه مرة أخرى جسدًا وروحًا. إنها حكاية المزدوج، حكاية الشيطان مشخصًا.

وبما أني كنتُ ذاهلًا بعض الشيء. فقد انصعتُ لِسحر ودهشة الضَّخامة اللامألوفة للمخطوط وروعة كتابته الرومانية الدقيقة وسذاجة رسومه. لا وجود لتصويرٍ إنساني، هناك فقط صورة وحيدة للشيطان مرسومة على صفحة كاملة مُقابلة لتشكيل معماري. لم يَسبق أن رأيت رسومًا أفقر من هذه. وقد شكَّكت في أن يكون ألبرتو يلعب بخرافات قديمة. استعدتُ صحوي بسرعة وبمجرَّد ما انتهى ألبرتو من حكايته طرحت عليه هذا السؤال كالصاعقة: «لماذا هذا الاهتمام الشخصي بهذا الكتاب؟»

– طبعًا بسبب المَلِكة كريستين.

– أعترف بأني لم أفهم شيئًا!

– اسمع يا جيرار، هذا النوع من المخطوطات موجود في إيطاليا. لكن مخطوط ستوكهولم كان في ملكية كريستين. وهو يَحمل اسم «كوديكس جيفاس». والمكتبيُّون

يُحافظون عليه بعناية فائقة. فهذا الكتاب ذو الأصل الشيطاني يُثير العقول التي بها مسٌّ في ستوكهولم، هل تعلم أن مجهولًا كسر، في أحد الأيام السالفة، الزجاج الذي يَحمي الكتاب وغابَ في الظلام. لكن لنَعُد إلى سؤالك. لقد اخترتُ هذا الكتاب لاحتياجي له في فيلمي عن ديكارت والمَلِكة كريستين. هذا كل ما في الأمر، ففي نهاية الفيلم أي قبل قليل من موت بطلنا الذي سيُجمِّده البرد، سأبرز ديكارت وهو يخرج من عند سفير فرنسا، السيد ثانوت، ويتمشَّى على الثلج شاردًا، وتُصيبه الهلوسة. وبدل الثلج، يجد نفسه يمشي على كتاب مُعجز، تقوده خطواته فتطوي كل صفحة في شبه شفافية، بين بياض الثلج وخطوط الكتاب المُعجز. في هذه اللحظة بالضبط يُصاب ديكارت بالتهابٍ في الرئتين. وبقدر ما يتقدَّم نحو القصر، بقدر ما يحس بالكتاب ينسحب من تحت قدميه. ثم تغوص الشاشة في بياض تأمُّلي. عليَّ أن أفك لغز هذه النهاية بالوسائل السينمائية. سينما تعرض علينا الشخصيات الأسطورية والمُلغِزة.

لا أعرف يا دونيز لماذا أُرسِل لكِ هذه الرسالة بغرابتها. ألكَي أُسليك؟ أحسُّ نفسي شخصًا غريبًا. ذهني مُثقَل. وعليَّ أن أُفرغه كي أجد نفسي. فأنا مُتمسِّك بعملي، لكنه يرهقني. أرجوك أن تتفهمي مُواربتي وحيرتي. من الأفضل أن نتحدَّث عن بُعد. بالمراسلة أو الهاتف؛ فالأمور تكون أقلَّ اختلاطًا عليَّ أمام جمالك. وأنا أخاطبك كما لو كنتُ أرغب في حمايتك من نفسك. أشدُّكِ إليَّ بحرارة.

ح.

أنا الآن أحلم بهذه المُراسلة وبتلك الرسائل المُتقاطعة، وخلال ذلك انظر من نافذة غرفتي إلى منظرٍ طبيعي موشوم بالحنين، إنه يُوقف في ذهني الخامل ذكريات قديمة تتَّصل بحياتي مع دونيز وطفلها، أرى نفسي أحضنُه وأُقبِّله مُطلًّا على عينَيه المحجوبتَين بنورٍ طفيف، هل افترقنا بالفعل، جسدًا وروحًا؟ كل لقاء يكون وحيًا، لكن ما الذي يكونه الفراق المعلَّق في الزمن؟ فهل من الممكن، بعد، أن يظلَّ الإنسان مُحافظًا على فكرٍ نافذ وعلى إمساكٍ مُباشر بالكائنات المحبوبة وبالقطيعة العاطفية الداخلية؟

لماذا تحبُّ النساء، هكذا، بهوَس؟ هذه القابلية تُثيرني. إذا نظَرنا إليها من الخارج، تبدو المرأة التي تفتننا هشَّة، أما إذا نظرنا إليها من أمام فإنها تبدو خائفة ومُترقِّبة. إنه ترقُّب يُعضِّد الجسد، ويغنيه برغبات خفية. وبدوري اقوم بإغناء قُدر أني عليَّ أن أحب

وأحب، ثم بعد أن اكتشفتُ أن هذه المواجهة مجرَّد لعبة بين العقل والجنون أدركت أن الملل الذي أخافه ليس سوى تعبير عن حيرتي في الحياة والبقاء لمحبوبتي ونسائي، أقول ذلك وأُكرِّره: إني أفهم فن الحب في كرامته ووفاته.

لكن مرحلة محبتي للجمال الخالص قد ولَّت، وبدأت تجربة أكثر صفاء وأكثر انفتاحًا تجاه الآخرين. العاطفة ما تزال موجودة، والجمال مُنكشِف على الدوام، ونحن نتوصَّل إلى امتلاك قوة هي قوة رُوح التبصر والروية، فهي تَزيد حُضورنا للآخَرين واهتمامنا بالأشياء. فُز من القرب هذا ثمين جدًّا؛ إذ نحن لا نملك القدرة على رؤية أنفسنا كلية من الخارج (وإلا سنكون أمواتًا أو تماثيل)، ولا أن نَنتزع من أنفسنا «روح القلب» وهشاشة الحركة. ففي الرغبة الأكثر وحشية، تُوجد دائمًا تلك الكلمة المحسوسة الصامتة، والشكل السرِّي للصمَم وللصرخة البيضاء.

لقد وصلتُ إلى هذه المرحلة. فعاطفتي تُثرى إزاء المرأة التي أحبُّ من غير أن أفقد عقلي وحقِّي في الاهتمام بها وبتحوُّلاتها. إنه لخطأ أن نرغب في تغيير امرأة وتقييدها، فهي تتغيَّر لذاتها من خلال الانتظار الرائع لرغبتها الكامنة فيها.

لكن هناك نساء لا يَنتظِرن. وأنا أكتشفهنَّ من خلال شبقيتهنَّ وجمالهنَّ الذكي. هنَّ سعيدات لحب الرجال، رجال كثيرين، بدون تبدُّلات أساسية. وأنا لم أحلم بما أقول، لكني أعيشه.

النساء يَقترحن والرجال يتصرَّفون. والعكس أيضًا صحيح في هذا الحِلف الضمني بين العشاق. حلف محكوم بتواطؤٍ واقعيٍّ لا تشوبُه خلفية انتهازية وتنظمه أعراف ضيافة وطقوس واختيارات وقرارات متسامحة ومسافات ملائمة.

ما أقوم بوصفِه وتحليله طوال وحيي الزائف هذا يمنحُني وَهْم الجنة. هل هو استرضاء للنساء؟ لا. فبما أنَّ الحب ليس نظامًا آليًّا فهو تعدُّد غير منظَّم. وحين تهدأ تلك الفوضى فإنها تترك المكان للمُجاهدة ولمرونة ذهنٍ مُتناغمة، إلى هذا الحد أو ذاك، مع مرونة الجسد. أجساد كثيرة لا نظير لها. وحين تنهار أو تخفت هذه المرونة فإنها تُحافظ على حبِّ اللعب والتسامح. تلك المرونة هي جمال التبصُّر. فهل بلغت؟ أن يشيخ المرء دون خبلٍ في الذهن هو الفكر الواضح لكلِّ حبٍّ كبير. سيقول لي ألبرتو فيما بعد: «مِن بين النساء هناك المُداوِمة وغير المُداوِمات بامتياز. أو إن شئت أيها الصديق، هناك الزوجة والعشيقة والمرأة الثالثة، ثلاث مُستويات من التعلُّم.»

هذه الحقيقة المُقنِعة للتراتبية، حين تُلفظ على هذا النحو، تمسُّني في الصميم من غير أن تجرَّ معها مبدئي في الوفاء، فنحن لا نرمي بالمرأة تلو الأخرى في سلَّة المُهملات. كل واحدة تسهر على حدودها وعلى أمكنتِها الواقعية، وأسرارها الشائعة. والإغراء الدائم لا يمحو الماضي كي يستعرض أو يُخفي ما ليس محبوبًا فينا ولا مشبعًا في قوَّتنا الحيوانية. فهل من اللازم الاستسلام؟

ها أنتم ترون أني أقترب من المُعاناة، بلا ضجَّة، مُزيحًا كل الأشواك، التي أمامي مُواساة للنظر، أريجها دوخة من الدنتيلا، فجأةً أغدو لطيفًا أقاسم الآخَرين الضحك والصراخ ولمحات النور؛ أضاجع وأعيد المُضاجعة؛ وكل شيء إيقاع في جسَدي المفتون الذي يتحكَّم فيه فرح عارٍ هو ضحك العينَين. فحين يُحبُّني الآخَرون أكون مشرفًا على أمرٍ ما.

صلاة

نهضَت لينا من نومها في الفجر. كنتُ في سريري حين نادَت عليَّ. رأيتها واقفة بين السرير والباب مُرتدية بذلة المُضيفات. على رأسها قبَّعتها. أخذتها في يدها، حيَّتني من بعيدٍ وعادَت إلى نيويورك. ثم استغرقت مُضطربًا في نومي من جديد.

خلال الليل، راقبتها وهي نائمة. كانت مُستلقية. يدُها اليُمنى على نهدَيها والثانية تحت الغطاء. ومن حينٍ لآخَر كانت تُغير من وضعية يدَيها، ثم تَثني رجلًا وتضعُها على الأخرى في نومٍ تناوُبي. لم أشهد في أي مكان آخر هذا التحوُّل الليلي الذي يخترق جموحي الرجولي. يحدث أن تمنحني هذه الفتاة المتوهِّجة نفسها عارية؛ أن تمنح نفسها لي وهي نائمة، جاذبة إياي نحوها في أوضاع حبٍّ غير مشهودة. آنَذاك تستيقظ وتجلس وهي غارقة في التفكير. وبدون أن تُوجه لي كلمة تعود إلى النوم.

كانت لي مُتعة السهر عليها وعلى فوارقها الزمنية. كنتُ أكثر من أيِّ وقتٍ مضى، الخامل الغريب. في تلك الساعات من الليل لم تكن لينا تملك هُوية معيَّنة. في النهار كانت نشيطة تتحرَّك جيئة وذهابًا. أجدها مرةً هنا ومرة هناك. كل شيء كان مُتأخرًا: مواعيد الأكل والخروج والتلفون والشهوات، وعوض أن يبهرني هذا الاستقرار جعَلني أصرُّ على المكوث في ستوكهولم بدون هدف محدَّد حقًّا. كنت قد نسيتُ دونيز وابنَنا. هل أصبح قلبي قاسيًا إلى هذا الحد؟ كنتُ مشلولًا أمام مطالب وآلام دونيز الملحاحة. لقد وضعَتني أمام حقيقتي، طالبة مني احترام العقد الذي يَربط بيننا، في الوقت الذي قد أكون فيه على أهبة فراقها. لكنَّني أنا نفسي لم أكن أعرف ذلك. لم يكن لديَّ صفاء واقعي ولا أسباب واضحة. كنتُ مفعمًا بالحذر.

كانت الشهور الأخيرة التي قضيتها مع دونيز خالية من أيِّ ثقة مُتبادلة. ولا أزال أشعر بهذا لمجرَّد تذكُّر ذلك. حين كانت تتمدَّد جنبي كانت أنفاسي تنحبِس. كنتُ أُحسُّ

ارتجاجات وأصواتًا مكتومة وضرورة مُستعجلة في الابتعاد عنها. غدَت دونيز غامضةً بالنسبة لي وغير مرغوب فيها. وهو غموضٌ خانَه الإنكار المُقنع: «اذهب لحالك!» هكذا كانت تقول، ثم تضيف: «لكنك ستعود بلا ريب.» يا له من خطأ اقترفَته في حقِّي! أنا لا أعود أبدًا إلى أولئك الذين يُحبُّونني زيادةً على اللازم. كانت كلماتها تحدِّيًا لي ووصاية عليَّ.

كنتُ أرتكِز على قوَّتي وحدها، وعلى وحدتي والملاحَظة الذاتية التي أملكها. وفي قلقها ذاك فهمت دونيز العكس، وربما عن حق. اعتقدت أني أريد منها طفلًا ثانيًا. تحدَّثنا عن ذلك خلال أمسية نارية. كنتُ حانقًا. تردَّدَت هي في أن تطلب مني ذلك. تظاهرت بعدم سماعها. وفي حيرتها سألتني بحذر، مُلطِّفة من هياجي ومن رغبتي الملحَّة في استبدالها بامرأةٍ أخرى. كان غضبي جامحًا. ضاعفت هي من حذرها المُقنع لتُصارع عنفي وعراكي. كيف أقول لها ذلك؟ فبجانبها كنت كالميت. ولمَّا فهمَت غرضي أدركها الجنون.

هكذا عنَّ لي أن أتمنَّى تحطيمها وتبخُّرها بدون عودة على الأرض؛ إذ لا حبَّ بدون حقد، وبدون حقد مُلطف لا يُوجد بقاء. كنت أختنِق. فوراء هذه الفوضى كانت دونيز تنتظر إشارة جديدة مني، هدنة تَطرُد كوابيسنا. حاوَلَت تكسير الدائرة. هكذا كانت تُحدثني حديثًا منقطعًا، ليلًا ونهارًا. اقترحت عليَّ أن نقوم بفسحات مرحة، لوحدنا أو مع طفلنا أو الأصدقاء؛ بل اقترحت عليَّ سفرة لجُزُر الكناري. حديث بدون منتهى. مَتاهة من المقترحات الخصبة.

منذ ذلك الوقت غدَت دونيز كثيرة الشرود. وأصبحتُ أنا أغيب عن البيت أكثر فأكثر. في تلك الحالة بالضبط سافرت إلى ستوكهولم. كان ذاك الاضطراب نابعًا، حسب ظني، من نقصٍ في الإيمان. فحين تُحبُّني امرأة لا أطعم ذلك بالاعتقاد فيه. فهل نسيت كيف أَرتبطُ بالآخرين؟ في أيِّ سرٍّ غرقتُ حتى أصبحتُ مشدودًا لماضٍ رهيب القدم؟ كانت لينا تعيش في البساطة اللامنتظمة للحاضر الأبدي. وكانت تستقبلُني في عبثها باعتباري كائنًا محتاجًا للمواساة، ورحالة واقعًا في أسر الدهشة.

كنتُ بُحبِّها أشتعل رغبة وإن من غير عشق. أنا أيضًا كنتُ أعيش فوق طاقاتي: سنة، سنة بكاملها في الانتظار. والزمن؟ ألا يُمكن أن نتصوَّر أن أصل العالم فوضى أولية تلاها سُبات عميق للكواكب؟

ظللتُ صامدًا. ولم تكن حالاتي النفسية خطيرة. لم يكن يُصيبني الدوار أو خفقان زائد في القلب. كنتُ حرَّ اليدَين. راقبتُ نفسي من الخارج. غريبًا عن هذه المدينة وهذا البلد كنتُ أتأمَّل النساء، أقترب منهنَّ دون أن أمنحهنَّ حضني الهش. هكذا أعيش بالقُرب

من سذاجتي ومن احتشامي الخفي، بالرغم مما يُمكن أن يُقال عن ذلك. كانت دونيز في باريس، ولينا ستكون في نيويورك جنب خطيبها. استخلصت ذلك يومًا من مُنعطفات إحدى الجمل. أحسستُ بالغيرة في الليلة التي تلفَنَ لها من هناك. كنا في السرير معًا. انسحبَت مني وأجابَته ضاحكة. كنتُ أغبطه حتى الموت. فهل يُمكن أن يُسبِّب لي هذا الانسحاب الجنسي أزمة أو ربما بذور مرضٍ ما؟ أظنُّ ذلك. خصوصًا حين يكون وهنُ القلب، في حالة عجز خطيرة.

كان ذلك علامة على ما سيأتي. تمَّ الفراق الفِعلي بعد ذلك بقليل. فقد أجَّلَت لينا لمرات مُتكرِّرة مواعيدنا التي أصبحَت مُتباعدة، حتى اليوم الذي تلفَنَت لي مُعلنة أنها على أهبة الالتحاق بخطيبها. نعم، كي يقضيا العطلة في أعالي البحار مع جماعة من الأصدقاء. كان عليها العودة إلى نيويورك في يومِ الغد. هل كنا سنَلتقِي فيما بعدُ؟ أين؟ ومتى؟ كانت لينا لا تدري. ألححتُ عليها. أجابت: «لا أملك القلب الكافي لذلك.» ثم وضعت السماعة. نادَيت عليها في التلفون من جديد؛ أنصتَت لصوتي ثم أقفَلَت الخط مرةً أخرى. أتذكَّر جيدًا ما حدث! أطلقتُ صرخة وضربت بجهاز التلفون عرض كرسي الراحة.

في الغد، وأنا ما أزال تحت وقع الحدث، دخلتُ سهوًا إلى كنيسة ألمانية تُدعى «تيسكا كيركان». كان اليوم يوم أحد. والوقت وقت قداس. في المدخل قُدم لي كتابٌ مقدس وكتاب صلوات أخذتهما بحركة آلية. قد أكون أخطأتُ إلهي في ذاك اليوم. كان الكتاب المقدَّس مكتوبًا باللغة السويدية وبخطٍّ قُوطي رائع، فيما كان القسُّ يقوم بوعظِه ودعواته باللغة الألمانية. كان ذاك القسُّ لوحده رسولًا ذا أدوار مُتعدِّدة، فقد كان خطيبًا متحدثًا ومُغنِّيَ مزامير ولاعبَ أرغن، قرب الواجهات الزجاجية للكنيسة المصبوغة باعتدال ولوحات القديسين الرشيقين الواثقين من أنفسهم، الهادئين المرحين إلى حدٍّ ما.

المسيح نفسُه بدا وكأنه خارج من حفلة ريفية مُقامة بمناسبة يوم القديسة ليسي؛ إذ لا أثر للألم على وجهه ولا يبدو عليه صَلب أو تعذيب ولو كان طفيفًا.

رفع الناس الجالسون جنبي رءوسهم، فعلتُ مثلهم، جلسوا فقلدتهم في طفسهم، لكن الأمر لم يتعلَّق بالتمدد، إلا إذا كان ذلك في قبر. بين الفينة والأخرى كانت الأصوات تُغيِّر نبراتها بعد حصة طويلة من المناجاة الداخلية، كنت غارقًا في صمتٍ عنيد. وكان الرجل الجالس بقربي يطوي صفحات الكتاب بوضع لعابه على أطراف الصفحات. أطراف مذهبة بالتأكيد، لكنَّها متآكلة من فرط تلك التسلية الأصبعية. كنت أقرأ بين السطور إلى حدٍّ كانت معه صلاتي العفوية، ذلك النشيد المُنتَزَع من جسد الحروف، نشيدًا خارجًا مِن الرصاص

أو من الذاكرة الاصطناعية. كنتُ في ذلك اليوم في حالة اندهاشٍ وعُزلة مُطلقة؛ إذ أنا المُفكِّر العقلاني قمتُ بهذه الصلاة التي قد لا تُصدق:

ربِّ لمَ أبكَمتَني وجعَلتني من جديدٍ أميًّا؟ فليس بقُربي أي هاتف يهتف لي ولا ملاك جميل. ليس بقُربي امرأة سماوية كي أُداعبَها بنظري. ليس أمامي غير هؤلاء السيدات الصَّغيرات بقبعاتهن المتألِّقة وكأنهنَّ السن في لحظة نشيد. هل نسينَ تعاليم الماضي؟

مولاي، جعَلتَني أعبُر هذه الحياة كحلمٍ خلقه الموتى. فهل سيكونون هم الوسطاء بيننا؟

وُلدت غير بعيد من قلب هذا القرن، في عزِّ الحرب والاستعباد. وهبتَني كل شيء، بكرامة نفس خفية. أيُّ عطاء رائع هذا الذي وقَع في ذاكرتي الجريحة كالوهج؟

ليس من أحدٍ بعيدٍ عن حقيقتك وحُكمك. لكن لو لم يكن فرحي صعبًا، هل كنت بذرتها بدون لا مبالاة معقولة؟

مولاي، لستُ أرتاد المعابد والقبور كي أنحني إجلالًا لعنايتك الإلهية، فثقتي في نفسي مُتقلِّبة حسب هوى الوحي، هذا اللااستقرار أعيشه في مغامرات حبِّي الجميلة. لقد سمعت أن الجمال لا قرين له في غير اندثاره. إنه جمال محفوظ تحت زجاج الكنيسة ملفوف بالأناشيد والابتهالات المُنتزعة من وريقاتها المذهبة.

يا له من كبرياء! أبدًا لم أعرف الانحطاط والإهانة المزمنة، لستُ مريضًا أو شبحًا أو عائدًا من بلاد الموتى، هل أحسست بأنَّ النذالة لصيقة بالخطيئة؟ خطيئة تبدأ من ارتواء القلب الجريح ومركزه الذي سبغ عليه الفزع والإرهاب أنواره. أنا مُحرَج يا رب أمام طيبوبتك، فهل هي مُنفلتة منا في كل مكان؟

بي حاجة إلى لمِّ شتات نفسي كي أرتاح بفعل قوة هذه الصلاة نفسها من ثقلِ خطاياي. مولاي، ما الذي ناديتُه في عُمقِ ليلي؟ هل أخللتُ بتحابِّي الرائع؟

عيناي مُحدقتان في زجاج الكنيسة، ترسُمني ألوانه وتشابُكاته كأيقونة مُنتصبة قبالة جدار أعمى. فهل سأُحافظ على انشقاقي فيما وراء هذا اللون الأسود؟ هل أنا قُربانُ زيارة. أنصت لهذا النذر (لكن لمن؟): ألا آكل حياتي نيئة، ألا أذوبها، ألا أُبخرها أو أذرها في الجهات الأربع.

ربِّ إني أرى أناسًا أشباحًا، وآخرين خائري القوى، وآخرين بُسطاء العقول. معهم أضحك بلذة. أقف بدون حياء أمام ضحكة وشعاع شمس ذاهل في رقصته الدائرية.

والضوء، والضوء الخارق، يمدني حيث أنا، بالبهاء المنتشر في طقوس الناس وذاكرتهم وهيئاتهم الروحانية.

أبدًا لم أعرف الاستحياء المزوج بالشر والخداع. أبدًا لم أضرب أحدًا ضربًا مُبرحًا. وكم مرة تفادَيتُ الرعب والقسوة القُصوى، وقد كنتُ أكثر هياجًا من وليٍّ عاشق.

هكذا، وبينَما أُضاعف من حريتي، لم أكتشف أبدًا جفاءً لم يكن نتيجةً لحرَجي الكبير. كلُّ واحد منَّا يصل إلى نهايتِه بخُطًى هادئة ثقيلة؛ نهاية تكون منثورةً في غبار النجوم.

كل شيء يبقى وكل شيء يَنمحي، وأظلُّ أنا مشدودًا إلى هذه المفارقة. مفارقة أحتفل بها في الصحو والنوم، وأيضًا في ارتعاشات أحلامي، لا ريبَ. هل ستَظهر يا ربِّ في أحلامي؟ لن أتذكَّر منه سوى صرخة في عز الليل. هل أكون سقطت في حضن حنينٍ قاس؟ لكن بالعلاقة مع أي صبر في الحياة؟ أظل مسكونًا بعجلة غريبة أكثر من أيِّ إنسان مُنهمِك في مَشاغِله. وبما أني لستُ جليلًا ولا غامضًا فإني أبسط نظرتي على الحرية المعقولة واللامعقولة لكل شيء، وأضع عينًا على الخلود الأهل المزركش بلحظات حضور ملحاح. رب، لقد صاحبَتِ الروح القلب باتجاه فتنة كبرى أو باتجاه كارثة. يحدث أن أقع تحت سحر إرادتي الجريئة التي تقوم بشطبِ كل العوائق الصعبة. آنَذاك تَنفتِح إشراقة الشمس باتجاه علامات لم نشهَدها من قبل. فهل أنا وفيٌّ لمصيري الحقيقي ولضروراته التي تُخفِّف من حدتها قوة مرحة؟

ما يَنقصني يتجاوَز كل قياس، وما أطلبه بإلحاح ينتمي للرغبة. وكل هذا ليس سوى سذاجة ونزق. مَن منَّا يعرف الرعب؟ فهل تغلب على نسيان هذا العالم؟ لحظة واحدة وأعود.

للعودة الكبرى طقوسها التطهيرية والنسكية، إن لم أقل أيضًا طقسها في العفَّة المُفتعلة. أتكلَّم لأني أعرف أنه بمُستطاعي أن أقول لكم كل شيء، ولو بدون رقابة أو لياقة أو فكر مُستسلم ومدجَّن بجراحه. حين تتهشَّم حياة يصنعون منها حياة أخرى. وهذا العمل أكبر من أن يتم فيه تحويل الميت إلى كائنٍ حسِّي.

هكذا تحقَّقت الرحمة بدون صراع مع مَلاك مُغتال. أنا لا أفهم ما أقول. أحيانًا أُثقل براءتي بكلمات نسيتها من حبِّي الأول، الأول أو الأخير، لا أدري. كتبوا لي ذلك بحروف رقيقة فاخرة على قلبي فصدَّقت. أحبُّ ويُحبُّني الناس، وهكذا دواليك حتى نهاية الزمن. كشَف جسدي عن صورته، واستعرضها مخترقًا بذلك كل احتشام. لم يكن لي أيُّ اختيار. ولا يُسعفنا الحظ أو الثقة في النفس إلا بعد أن يكون كل شيء قد تم.

يتمُّ القيام بمشروعٍ أو برهان بدل الشكوى أو العذاب المُحرج. لكن الخلاص الحق ربما كان كابوسًا وحيرة. جاء النظام ومعه جاءت الفوضى. أقول للمحبوبة: لقد تجاوَزنا السُّخرية بكثير. إذا أنا وضعت قميصك الحريري وحليَّك أمام هذا القداس، فإن ذلك سيكون إكبارًا لصلاةٍ جديدة مصنوعة من الدنتيلَّا ومسبوكة بفن النبالة القديم. أوضاع شبقية في الجسد والروح، فلتتمتَّع إذن!

ربِّ، إن كنت أكبرك وأبتهل إليك مرةً أخرى، فلأنَّ حنقي يَهمس لي أحيانًا بكلامي. ثم يهدأ الحنق في صمت خفي. إنها اللطافة المشبوهة للظلمات والضباب المشتعل بفجر مُستعجل كنسرٍ خرافي. لا حاجة لي كي أكون إنسانًا مجردًا عن جسده، وإنما بي حاجة لأن أكون اسمًا، علامة، رسالة. يتناثَر الفجر فيما الكاتب المُتوحِّد، بعد أن تابع عقارب الزمن، يدور مع الشمس والقمر والضوء والظل.

مولاي، أنا لا أبتغي أن أكون إنسانًا آخر، نظيرًا أو نسخة مِن فوضى هُويتي، غريبًا غربةً مُطلقة عن ذاكرته العميقة. ولا اتَّجه نحو المُستحيل. فبين بابَين مفتوحتين اختار دائمًا الأكثر ألفة في حركته المتقطِّعة.

هنالك قُرة مجهولة تفكُّك جسَدي وأصابعي البحرية وتمنعني من الموت مُتأثرًا بعذاباتي. إنها عذابات قابلة للاقتسام والتفرقة، موهوبة لنسمة العواصف وحدَّة الرياح المتقاطعة، أنا لا أحتفل أبدًا بالدوار. فالسجود فِعلٌ من أفعال الحب. وأنا أقوم به من غير مساعدة. لقد تردَّدتُ كثيرًا أمام تعدد أقنعتي وحماقاتي. وحين أستخرج بعضها أحس نفسي عاريًا أمام السماء، وهذه الكمشة من نفسي والتراب، مثل ما أنا أمام هذه الساعات من التسلية الخالصة. لرغباتنا يا مولاي إشاراتها؛ فهي تنحت دومًا عواطفي وحُدوساتي وخطواتي، أنا لا أرى خطواتي وإنما حركاتها فقط، فليس هناك تبشير فيه الخلاص أو تقزز يكون موجَّهًا يا مولاي ضدي.

وإذا ما قمتُ، كما يقوم الصوفية، بخطِّ دوائر من النار بجمرة في الظلمات، فهل سأرى رُوحي تلتهب من كثرة العناد؟ أنا مهاجر خائف، وأنا كذلك على سطح الأرض بكامله.

يَحكي رحَّالة عربي قديم عن تأبينٍ غريب للأموات، هناك في شمال بلاد الفكينغ. فإذا كان الميت، فقيرًا يُوضع في قاربٍ ويتمُّ إحراق الكل، يا له من زواج بين النار والماء! أما إذا كان غنيًّا فإنهم يُقدمون له كقربانٍ عبيدًا وجواريَ يتمُّ إسكارهم ليلَ نهار حتى لحظة القربان، يتم وضع الجثة على سفينة مُزيَّنة بأقمشة وأبسطة شرقية. ويظهر ملك الموت في

شكل امرأة عجوز، هل كانت ثَمِلة هي الأخرى؟ لم يَذكر ذلك راوية ولا علَّامة. ثم يتمُّ شطر كلب نصفَين ويأتي دور الخيول والبقر والدِّيَكة. ويُرمى الكل على ظهر السفينة المبحرة في لُجة المياه.

تقوم الضحية بجزِّ رأس دجاجة وتصيح: «انظروا معي! هناك أرى أبويَّ. إنهما جالسان. آه إنني أصعد نحو الجنة. فسيِّدي يُوجد هناك مشرقًا. سيدي الجميل المزيَّن بالضياء، سيدي الذي من أجله أفارق الحياة.» تهبُ الضحية زينتها وخلاخلَها وحليها لملك الموت. تنسحب من أمام خيمة الميت. يتمُّ الإمساك بها والدفع بها إلى الداخل. يتلو ذلك لحظة فجور غريبة. عشرة رجال يقومون بمُضاجعتها، في كل الأوضاع. دم بدم وموت بموت، وها هي الآن مُضطجعة جنب سيِّدها الميت. يتقدم منها ملك الموت ويطعنُها بخنجر مهنَّد بين ضلوعها فيما يكون الرجال آخِذين في خنقها. يا إلهي! يتمُّ إشعال النار في السفينة. تشتعل النار تحت غضب السماء محمولة بعاصفة أُخروية. إنها مجرَّد حكاية من الماضي.

يا إلهي، هل يكون إحراق الجسد ونثر رمادِه في مهبِّ الرياح وحركة الأمواج عملًا همجيًّا! وبما أن الموت انفصال ونسيان للأرض، فلماذا لا نُخلق مع رمادنا؟

الأسى فرح شائخ. إنه خطوة نحو الأرض أو السماء، مصحوبة بتعفُّن الروح. فهل ينسى الناس الحياة على عتبة غيابهم المُبهم وهم مزيَّنون برفات الأحياء؟ يحدث أيضًا أن يُنطفئ كل شيء في عقلي وجسدي المُنتشي، أن أكون مُضمخًا بدموع صامتة، ومهجورًا من طرف الفراغ نفسه، وأن أُكرِّس نفسي لغموضي الكبير. أطفو من غير نجمة تهديني، أرتفع وأتشكَّل. أُغيِّر تمامًا نظرتي للعالم والناس وهواجسهم الرائعة، وأستسلم أمام كبريائي. فهل يستطيع أحد أن يتحدَّاني؟ لا أجيب. وأكون بذلك مُتظاهرًا باللامبالاة، لا أكره عدوِّي ولا أحبه. أنزاح باتجاه طريقي المتوحِّد وباتجاه حقيقتي ومُرتكزاتي، هل هي الغبطة أو الحسد تجاه هذا وذاك؟ أخرج من تلك التجربة جريحًا وبدون وعي واضح. أستمع وأصيخ السمع لأفكار باطنية. أمنح فرصة لمن يريد لي خيرًا حقًّا خالصًا ورزينًا وغير منته أبدًا. والكرم، أمسك به الجو، وأردُّه بدون أي ضغط.

يا رب، هل من السهل الحفاظ على مبدأ الاستقامة؟ وهل سيكون ذلك معجزة إن أنا به تمسَّكت بقوة؟ وهل هذا الصراع مُتكافئ وإرادة حقة بدون مخرج؟ داخل قوى الليل الشمسي، سيغرق عقلي في التأمل على سطح الأحلام والأرق. وكلما رأيت رؤيا سحرية أجد نفسي على سطح الأرض والسماء والماء. ومن نجمٍ إلى نجم، تُهاجر كلمات بسيطة موشومة في القلب حول منامي وتغيُّرات أحلامي.

تلك التي تنام جنبي تسهَر على ذاكرتي. لذهني صفاء الصحو أمام شفافية عينَيها وتموُّج خصرها وعناقاتنا الليلية. فهل هذا من الحقارة في شيء؟ رب، إني لا أشكو أبدًا من جراحي وهيجاني، من بلادتي وحرجي. أكرر دائمًا لنفسي بأني قد أكون فقدتُ كل علاقة إرادية مع الاستسلام. لكن عشقي النابع من أفكارٍ طفولية ربما كان للأسف باردًا! ربما كانت تلك الأفكار مُقنعة، ببرودتها وسداد نظرتها!

أنا لا أضع مُقابل مستقبلي أي عنفٍ قاسٍ. فالزمن المختل الفارغ، الرخو المتراكم على صفحاته المتراكمة، يُصاحبني باتجاه أبعاد جديدة. قد يكون مُستقبلي الكبير مرًّا، ويُمكنه أن يجعلني أتفادى آلامًا ضمنية. إنه القاعدة السرية للفراغ.

أنا لا أُحاول أن أفاجئ ما أجهله بعطالة مبالغ فيها. أليس من الواجب اكتشاف الفكر والقياس العيني والصحيح للأشياء وتناظمها عبر المُعاناة؟ كم تبدو لي تلك المُعاناة ضحية لغموض وجهتها! أناديها بصوتٍ خافت تنفخ في إيقاعها ولحظات حقيقتها. هل أنا مُستعد لاستبدال كلامي وقسمي بالصمت الأخطر؟ رب، يا حافظًا لذاته وبعده القصي، أبدًا لستَ أنت قبالتي!

أقوم بضبط علاماتٍ وارتجاجات وهمسات واقتراحات مُفاجئة. ويقال ها هو آت. يتفوَّهون بحكم جميلة، وبتمايُزات فجَّة بين العقيدة والإيمان، بين الإيمان والقدر، بين النشوة الداخلية والخارجية، بين تجلِّي المسيح وعودته على الأرض، بين الألغاز والمُعجزات بين الحروف والأرقام، يتبادل فيه الطرفان مواقعهما باستمرار، كما لو أن كل إنسان وكل حيوان أو أي كائن طبيعي هو مجرَّد حكاية طفل صار تمثالًا بفعل ولادة خارقة. كل شيء يتمُّ اقتراحه عليه وعلى كلامه عبر تقنية انتقال الخواطر أو بشكلٍ مباشر عبر شُرطته الروحية؛ بحيث لا يُمكن للمرء أن يمارس الخداع أو إخفاء الأوراق تحت الطاولة، والطاولة موجودة تحت المقابر وهذه الأخير تحت طفل ولد ميتًا.

إنه لعنف مُذهل أن يَنحني المرء، إذن، نحو هذه الأرض أو يتعالى بحثًا عن أمل في السماء. شبح. أيها الشبح. بين الفراغ والحرية، أثر كائن يطلب النجدة، رب، لمَ يكون الناس ملزمين بالمكوث هكذا ساجدين؟ هل يُحاولون الحصول على رحمتك؟ لكن الرحمة قوة حب ممنوحة للمحبين والمحبات، في الجسد الأنبل والأشهى! هل يرغبون في الهداية؟ أو بالأحرى في مخادعة الشبح؟ لكن الأشباح ليست سوى لعبة أضواء. يصوغها ويطفئها تناثُر الغيم وهو يعبر بحر البلطيق وبحر الشمال في لمح البصر.

كلُّ حدث يُخفف من حضوره الملحاح تبعًا لنسيانٍ حادٍّ. أستسلم لمرحي وخوفي وشغلي كي أحمي هشاشة صورتي من بريق الضوء. وفي مخزون قوَّتي المحدودة تكثُر الوجوه

والأزقة والمناظر الطبيعية والأسفار البعيدة، هل أعترف بذلك؟ على وجهي وقسماته يبدو ظلُّ الواقع واضحا. ربِّ إني أريد أن أتحدَّث إليك فلا أستطيع. أرغب لو أمنحك صلاتي، لكنَّها تعود إليَّ، هنا بين يديَّ، كما يعود السَّهم إلى صاحبه من غير جرح، وأيضًا من غير عناية أو إهمال.

وبما أني حسَّاس تجاه اللامبالاة وقلاقل العالم، فإني أحني رأسي أمام اقتراب النوم، وعلى ضفاف الشمس. في الليل يرجُّني شُعاع صباحي، ويُهدهِدُني فجر قصير مخصَّص لي. فهل اقترب منها؟ هل هذه هي إذن طريقتي في أن أكون غريبًا عن سعادتي وهنائي؟! ينخرني الشك. إنه شكٌّ صريح وكثيف. ذهول في عقلي وجنوني. دوار، انقطاع، سقطة، شيء حادٌّ يملأ لحظاتي الحقيرة ثقوبًا. كل شيء يُسلِّيني. فهل أنا مُهتم إلى هذه الدرجة بحياتي الواقعية كي أبحث عن طريقي في الظلام؟ سيكون الأمر مدهشًا لو أكون الظلَّ الخفيَّ لإله ما. سيقول ملك الموت: «شبه بقاء على قيد الحياة.»

تهت من الخوف ولم أُدِر رأسي أبدًا. اصطنعتُ الذهول. نصَّبتني المحبة على نفسها فرضيتُ عنها في شهوتها السحرية. ثم انسحبَ جسدي وتبعه قلبي، في راحة أخَّاذة. يا لها من وحدة رائعة للمُتحابين، تُوشم بالكلمات المُؤثرة المهموسة من غير شاهد. يا رب هل كان من الضروري أن تُبعدني عنها بلطافة الملك الأكبر؟ ألكَي أستيقظ، أنا اللاواقعي، في واقعٍ ينأى عني باستمرار؟ وبالتأكيد، عبر الوهم والغرور، عذاب ثابت وكسوف لوجهك الكريم. سأتحدَّث إليها يومًا، لكنَّها ستكون قد غابت. بالرغم من ذلك فأنا لا أمحو الآخرين بنظراتي، ونادرًا ما أُرهبهم أو أخيفهم. هل يكون ذلك حذرًا مني، أم نتيجة لحبٍّ حياة مُزدوجة؟ إنها استقامة لا اعوجاج لها. وحين أكون مختليًا بنفسي بعض الشيء أغدو، بالمقابل، مُتفرغًا لها. فهل من الضروري أن أمنح لهذا المصير فكرًا مؤمنًا ومزاجيًّا معًا؟

يَمتلك فنُّ الكبرياء مزايا حِسية غير مشكوك فيها. فهو ينصرف لخدمة الآخر محبًّا كان أو مُحبةً، ويتفرَّغ لنشيد الأسرار مؤلفًا فُسيفِساء من الخلوات كي يُقدم لكم أفضل أعرافه المضيافة ودليل الثقة فيه. إنه يتحدَّث بصوت خافت عن رغباته ورهاناته وحظوظه وخيباته. لا بهدف استعبادنا وإنما لأجل ربطنا بجوهر شهوته.

فهذا الفن يتكلَّم. إنه ينكتب ويتحوَّل إلى ألغازٍ وأُحجيات وتلميحات ولذَّات مشتركة. لهذا فهو محكوم بقواعد اللياقة والأدب. الكبرياء الجميل يكون دائمًا من غير غرور. كل شيء يتمُّ في فضاء الرغبة. والكبرياء غالبًا ما يكون مُضطرًّا إلى التخفي. الرهبان يَبتهجُون بالكبرياء. لكني لست راهبًا ولا قسًّا ولا طفلَ جوقة. فكيف أطمح إلى الوجد أنا الذي تعوَّد

على اللذات البسيطة؟ كيف أغدو مُلغزًا في الشهوة التي يُحسُّها من يُشاركني إياها؟ في أيَّة لحظة يتوصَّل الجسد إلى الإيمان الذي تُوحي به اللذة الجنسية؟

وحتى أكون محقًّا يا رب، سيكون لي هذا الرأي: إنَّ جسد الراهب أو القسِّ مُترملٌ من نفسه. إنه لا يعرف العفَّة، فهو مُترمِّل في الدهشة. وأنا لا أعترف بأي شيء لأحد. لك فقط أنت يا مولاي، وإليك وحدك أعهد بنفسي.

قيل لي اذهب إلى الموتى لترى. أغلقت عيني. وقيل لي مرةً أخرى أنصِت لها. فأغلقت أذني. هل تكون صورة هذا الشبح اختبارًا لي؟ هل أكون نسيتُ ذلك الندم، ذلك الندم الماكر ذا الأصابع الشبيهة بأصابع الجنيات، إلى أبد الآبدين؟ أم أكون نسيتُ ذلك الإقبار الغريب؟ هل سأستطيع الصمود إلى حدِّ ذاك الوقت، إلى حدِّ حلول الساعة، ومن غير سخاء؟

ربِّ، أنا مُضطر ألا أحتقر نفسي أو أمتهنها. سيَصرخ البعض: «يا له من كائن بليد! أي فاقة قصوى هو الشاهد على عارها؟» عليَّ أن أتحدث وأحادث نفسي عن وضعيتي، وبدون ندم مريح أو قساوة لطيفة، سأُسمي ما سيأتي وما راح وما ترك آثاره، كل باسمه. فكل شيء يترابط منذ طفولتي في ذاكرة ثابتة، وأنا مُنفتِن منذ صرخة ولادتي وقفزاتي الأولى.

لكن أيَّة عبودية؛ مهما كانت قساوتها، تستطيع فصل لذة الجسد عن عُنفِه اللامحدود؟ هل هي قسوة أن يسكب المرء دموعه ويَقتلِع قلبه ويتمزَّق ويبتر أعضاءه في الملذات مع امرأة؟ هل يُشكِّل حبٌّ عميق ما جزءًا من وجه ميت أو من عشق الملمس والنظر والثمالة؟ وهل العشق، سواءٌ أكان في السراء أم الضراء، أسيرًا أم مقلوع الجذور، مجرَّد نشوة باردة؟

رب، أيها القادر على الحب الموضوع تحت المراقبة، إني أُحاكي أولئك الذين (أو اللاتي) يقتربون مني بثقة. وبدون جُحود؛ إذ لا فوضى ولا غموض يشُوب النظرة السديدة هذه التي نرمي بها للصدفة. هل حصَّنا الضرورة حتى نترك أنفسنا ضحايا لجمال الصدفة. هل قدرنا خطأ، جيلًا بعد جيل، تبذير خيراتنا وأفراحنا؟ وهل سنقوم، تحت وطأة اليأس غير المُجدي، بإدارة ظهرنا لكل مذلة؟ لن يصل آخر ميت إلى هدفه الأسمى؛ ذلك أنَّ آخر حي يَحميه من نفسه ومن مشهد تحوُّلاته.

يحدث أن أقع ضحية للتعب ولأعراضه السردية، من غير أن يكون في حلقي أو في أطراف أصابعي كلمة صحيحة. إنه تعب يروح أو يتزايد. وحين يفزعني التعب تكفي فكرة وَقِحة واحدة لتهدئة أعصابي. غدت علاقتي بأقربائي موسومة بالغرابة. وأمام حدقتي تَتَتابع ظلال لا شكل لها. أصبح الهواء نادرًا والسماء توارت والأرض انزلقت في

مجازات عتيقة. همس لي الشيطان بهذا السؤال: أليس يوم القيامة صورة مجازية للزمن السائر، زمن على الإنسان أن يُغير فيه وجهته؟ لكن بالعلاقة مع أي مركز جاذبية لفكري وتاريخي وفني؟

ولبُسطاء العقول من أمثالي أضيف: هل أصابتنا الصاعقة؟ هل أصابنا جنون الحياة في فرحٍ فوضويٍّ غامض لا شكل له؟ لي الشجاعة الكافية للإيمان بفكرٍ يكون إيقاعًا وزينة للجسد، وبعقل يمسُّنا في حميمية قلبنا. لكن هذا ليس كافيًا، ذلك أن تلك الحميمية الهشَّة بحاجة إلى التأمُّل النشط للفن. فهو الذي يقيس تنفُّساتها ويكشف عن استعدادنا للمحنة.

لهذه الصلاة قَساوة الصرخة، فكلَّما جاءني حدس ما همهمت بصوتٍ خافت وصَوتي مُؤلَّف بوعدٍ غريب: عليَّ أن أُخفِّف من القساوة والتضحية اللامتكافئة. في سبيل نفسي والمعذَّبين والفقراء، فعددُهم لا يحصى. لقد كنتُ دائمًا ضعيفًا أمام براءتي المُتنامية. وكلَّما زادت فظاظتي، استعلنَت أمامي فظاظة العالم، هناك حيث يظهر كل شيء على السطح عاريًا من كل عمق ومُفككًا بشكلٍ مُتقطِّع. إننا لا نهوي، وإنما نسري في الزمن المفصول عن يقيناته، وفي كل لحظة أبدية وكل وهمٍ وكل فكرة نافلة، بهذا الشكل نظلُّ مشدودين إلى عنادنا الحماسي.

رب، يُهمني، بل يُهمنا، التوصل إلى هذه الأخطاء الصعبة للقلب والحواس، فإذا كانت الطاعة إرادة مفصولة عن ذاتها فكيف تكون الحقيقة والضلال مفارقة صحيحة؟ هذا شيء أهمسه لنفسي من غير تقزُّر أو فجور زائد. يتمُّ تأكيد الفعل بكلمة مُجرَّبة، ويتمُّ تجذير كلمة مُتبصِّرة بانفتاح العقل على الأشكال المُختلفة، وعلى المبادئ ولذَّة الإبداع والراحة الروحية. ربِّ إني أنتمي لهذا الإعفاء الخلاق.

أنا مُتمرِّس إلى حدٍّ ما على تحمُّل مسئولية مَرِنة تجاه الآخَرين، لكنَّني هل أتوفَّر على الحماية الكافية ضد كل تلاوين الضرورات التي تعيق مسعاي؟ هل سيتم السماح لي بمعرفة أن العذاب قد ظل كما هو، بين أيدي الملائكة؟ ما الذي اختلط إذن بالرحمة الموشومة بالتشنجات وبالأنين المُتواصِل؟

في ظل السكون المُحايد لهذه المدينة أصلي بعد أن تحرَّرت من الجلوس على مقعدي. أتسكع في مكاني. يبدو أننا ندخل إلى الكنيسة دون أن ندفع الثمن، لكننا نخرج منها مُثقلين بالديون الروحية، من دون أن نُدخل في الحساب القطعة النقدية التافهة التي نرمي بها في صندوق التبرعات. فهل تكون هذه العطالة يا ترى بدون صندوق للصدى؟ إني أشير هنا يا رب إلى الصمت كي أتكهَّن برعشته وعودته. أتغذَّى، ما سنح لي الوقت، من هذه

القوة العنيدة التي تغسلني من كل خطاياي. لقد جعَلني هذا السفَر إلى ستوكهولم أفرُّ باستمرار. لكن هناك فاجأني ملك أعمى. ومن جديد، متنقلًا من نشوةٍ إلى أخرى، أغلقتُ عيني وأذني الثالثة، الوحيدة التي تُحافظ على يقظتي حين يصرخ كل شيء في داخلي ضد المحنة والإهانة القصوى والقساوات الماكرة.

رب، هل يوجد نشيد نادر وجميل قادر على تحويل العذاب إلى هناء؟ من سيخاف، في حالة الحزن هذه، أن يختفي في رماده؟ كيف تنظم صلاة مُكتملة في الوقت الذي لا يشجع فيه أي شيء على استعادة كرامة الغارقين في المهانة؟ رب إن الشاعر السويدي قال بأنه فقَد عقله إلى درجة أنه منَح نفسه للعاهرة المقدسة، وأنا الآن أبتهل إلى هادينغوس وملحمته الشهيرة، أبتهل إلى هادينغوش وهارثغريبا، هي؟ ها هي ذي تشدُّنا إلى سحرنا ووحشيَّتنا، ألا تمنح لذاك الشاعر العاشق الحماس الذي يجعل الفتيات الجميلات يرتعشن؟ هارثغيبَّا! أيتها العملاقة التي تُغذي العالم بالشبق الأكبر، التي لا يَرتوي عطشها والتي وقعت ضحية المبالغة الخارقة، وأنت يا أودان، إني أجدِّد ابتهالي إليك!

هل أهرب يا رب؟ فأنا محجوبٌ عن الأنظار تطبعُني وتنحتُني ذاكرتي وتأرجُحاتها المقموعة. في الاسم والجنس والاستقامة، هل تبدو مُقنعة؟ وبما أنها موشومة فهي تبحث عن النعمة الصحيحة التي ترغب في إيصالها إليَّ. رب، ألستُ ألعب لعبة المفاجأة الثاوية خلف هذا الرضى غير المكتمل الذي تكشف عنه كل صلاة إلى درجةٍ أدهش معها نفسي بمحنتي اللاواقعية؟ فهناك عقول رزينة تقع ضحية ذلك، والكثير من النساء الجميلات اللواتي ضيعهن نزق الزمن. وإذا كنَّا نتَّكئ على سند قائم، سواء أكان زوجًا أم زوجة، وإذا كنَّا نتَّكئ على عُكازة حب، فهل هذا سيَنزع الغشاوة عن أعين من يرى ما يرى ويلمس ما يحب لمسه؟

أتشبَّث بالوضوح فيتبخَّر الوضوح. أتكلَّم بنظام فتسبق الفوضى تمتماتي وتحفُّظي. أتقدم نحو مركز الصخب ملفوفًا في هذا العائق. لستُ مُتمردًا. لكني عاشق في السرِّية. أما زلت طائشًا؟ هل يكون هذا جنونًا وصلاة مجانية غير مصحوبة بوصية مكتوبة في الدم؟ هل يعتقد المؤمنون بالغضب الأبدي وربما أيضًا بانتحارٍ لا دليل عليه؟ ربِّ إني أُفصِح لنفسي بضعف الروح والقلب. فهو ضعف ضروري لذاكرة مُتنامية لا ترتكز على أساسٍ ماكر. أتصور أيضًا لا واقعية الجريمة والإرهاب والقسوة التي لا رحمة لها. فالذِّهن نهر كبير تُنشطه الرياح الآتية من كل صوب، لذا فهو يتململ تحت ثقل واديه. إنه ركامُ الحصى وحبَّات الرمل المسافرة بين الشطَّين المُتماوجين. وأمام شجرة بتولة ضخمة يخترقها الشعاع، ينظر صاحب مركب المرور إلى الخلاص يأتيه من بعيد.

رب نحن نتبع القانون ونرزَح تحت ثِقله المُتغيِّر، المحمي بالعناية الإلهية. أضع نفسي رهن الزمن. فالزمن يبدو من الخارج كشيءٍ لا دليل على وجوده، ومن الداخل يجعل مني فرجة وشاهدًا على نفسي، وموضوعًا لأمزجة الثراء. ليس للزمن حدود أو إطار، مُتناهيًا كان أو لا متناهيًا. أسكنه في تعدُّد مناخاته، كي أبدو طبيعيًّا لدورة الفصول وحركة الأشياء وتقلُّباتها، أو أعبره واهبًا نفسي لجبروته، كظلٍّ مشوب بشبه وضوح. وكذا أجد نفسي مسكونًا بتغيُّرات شيفية مُستمرة تتلوها هدنة عاطفية. وأظلُّ مُتشبِّثًا برأيي وكذا، مبهورًا كل يوم وبعيدًا عن كل مُشاغبة مُفتعَلة. هذا التوازن المُنقسِم إلى دوائر وصور وتحرُّكات مؤهَّل لأن يستعيد لي مواقعي في التحابِّ ومحاور جاذبيتها. ولأني، غريب عن هذه المدينة بالرغم من أنني خبرت شبقيَّتها العنيفة، أستدير نحو نقطة واحدة مبدأ في التبصير مرصَّع بالتقوى والنشوة الباردة. كنتُ أُمارس الإيمان والتفكير والإحساس والخيال، رب، لن أتمكَّن لوحدي من وضع أسلحتي الخارقة ولن أتمكَّن من استسلامي.

هكذا تمتمت بأُولى صلواتي وربما بآخرها، صلاة كانت معلَّقة في الزمن الآتي، خرجت من الكنيسة مُستعيدًا تلك الوقائع الغريبة، مهتزًّا من تلك الرحمة الربانية، وليس لي الآن ما أكاد أفضي به حول هذا الفصل التعليمي.

المربع السحري

ذكَّرني هذا الرحيل المُفاجئ للينا باليوم الذي وقعتُ فيه لأول مرة تحت فتنة امرأة لم تلبَث أن هجَرَتني. لم أُطق هذا الاستفزاز من طرفها. كانت تُدعى «سيريل». فبدل أن تُثبت نفسها في طبيعتها الأنثوية، هي التي صبغت عليَّ من أنوثتها، حافظت كليةً على حق المبادرة، وبحركة واحدة طوَت الصفحة.

كان ردُّ فِعلي ردَّ مراهقٍ من مُراهقي الجنة. ولمدة شهر كامل أدرت نفسي بعنقود من نساء نائمات على يميني وشمالي. كان كل شيء هشًّا ومطبوعًا بنزقٍ قاتل. كنتُ أبدِّد جسدي وعقلي وقوَّتي المبدعة. ولأني أصبحتُ منهوكًا فقد أوقفت السباق. كانت خطواتي مُضطربة من فرط التعب والشهوة غير المرتوية. أثناء ذلك، استطعت ضبط جموحي وتكييفه مع إيقاعي الخاص. حل الهدوء محلَّ القلق. إنها لحظة نادرة، بل هي أقرب إلى المُعجزة، حين يبقى الإنسان باسطًا نظراته على المرأة التي أحبها دائمًا.

كان ردُّ فعلي أمام رحيل لينا مغايرًا. قررتُ إفراغ كل شيء في داخلي وحولي، وحبستُ نفسي في البيت لمدة ثلاثة أيام بعد أن ملأت الثلاجة بالمُؤن وعطَّلتُ التلفون. وحيدًا وفي صمت مطبق لعبت دور الميت. كنت أعيش حالة ذهول، لكن إرادتي كانت قوية. ذلك أن توحُّدي كان دائمًا قريبًا من عنادي؛ لأنه المُقابل الفعلي لفن الكبرياء.

لم أكن أفعل شيئًا على التقريب. أنام ولا أنام. مسحورًا ومهجورًا، كنت أحلم بعيون مفتوحة أو مغلقة في الظلام. كان ذهني غاصًّا بالصور من غير أن يَنفجِر. كنتُ أعرف، بفضل هذا النشاط المنامي، وما كنتُ أقوم به من تمارين في إبطال السحر، أنَّ الغياب المُفاجئ للينا سيكفُّ في نهاية المطاف عن إقلاقي، وسيبعد عني شبحها، ثم جاء الفرج. أتاني هذا الحلم؛ إذ رأيتُ نفسي، فيما يرى النائم، مراهقًا، جالسًا إلى مكتب عملي في

مدينة من الريف الفرنسي. كان يومًا من أيام الصيف، وكان الضوء خالصًا وزرقة السماء معدنية.

كنت أقرأ شارد الذهن حين ظهرت سِحلية بين رفوف المكتبة، كما لو كانت شبحًا مألوفًا للكتب ولأسرارها. كانت تزحف وتتوقَّف ثم تختفي، مُوفِّرة بذلك، وبحركات غريبة، حاجتها من الأمن. نسيتُها وتفرَّغتُ لهموم الامتحان.

نهضتُ لأغلق النافذة فاستعصت عليَّ. لم ألحَّ في ذلك وتابعتُ عملي. كررت نفس المحاولة، بدون جدوى. لم أعرف إن كانت السحلية جاثمة هناك بين إطار النافذة وعمادها، أو أنها مرت من هناك قبل أن تتسلَّق شجرة داتورا قريبة من النافذة، فجأة أبصرتُها. كانت مُحاصَرة وفي حالة يُرثى لها. العينان جاحظتان في هذه اللحظة من خروج الروح. كان رعبًا مقدسًا وكنتُ خائفًا، مُتنقلًا من مفاجأةٍ إلى أخرى في هذا الموت المرئي. كان المشهد مرعبًا. وخوفًا مِن شيء ما غلفتُ السِّحلية بإتقان في ورقة ورميتُها باتجاه الداتورا التي تحتوي على مخدر خاصٍّ ومصفاة حب. تأثر نظري بهذا الموت السحري الذي كنتُ شاهدَه المجهول. ففي تصوُّري، ماتت السحلية مكاني.

حين أفقتُ من النوم، كانت الشمس قد غمَرَت الشقة. نهضتُ وقمتُ بإطلالة على الحروف والشارع والمارة. كان مرحٌ ما يطفو في الهواء. لبستُ ثيابي وخرجت للتجول.

في الغد وجدتُ نفسي أطرق باب أولريكا من دون أن أعلن عن زيارتي. كان سفين جالسًا إلى مكتبه. كنتُ أعرف ذلك، فهي مبادرة عنَّت لي دون أيَّة نوايا سيئة. إني مُضطرٌّ لقول ذلك، وأوضِّح أن هذه الزيارة ليست حيلةً من جانبي. كانت أولريكا شريكةَ أسرار ذات مزايا سِحرية، وكانت ستبدأ بيننَا علاقة لم تَحمل بعدُ اسمًا لكنها من أكثر العلاقات رَوعة في حياتي.

كاد حدثٌ تافهٌ أن يُهشم ما بيننا. وجدتها في نفس الوضعية، جالسة إلى حاسوبها. لم تُحدثني عن لينا أو سفين. اكتفَت بأن شرَحَت لي مهارتها. أظنُّ أني أردتُ أن أداعبها لكن ذكرى ذلك غدَت ضبابية في ذاكرة يدي. أناطَت نظارتَيها وهمسَت لي بهذه الجملة: «ليس ذلك فعلًا أورثوذوكسيًّا.» ثم انفجَرنا بالضحك.

كنتُ أقترب تدريجيًّا من أولريكا ومن هوايتها السحرية. ما الذي كانت تبغي اكتشافه بعنادٍ في جلستها الأبدية تلك أمام شاشتها؟ لكن أليسَت تلك السُّرعة خاضعة للهلوسة؟ وللفوضى بين الرؤية والملمس؟ أليسَت أولريكا صورة مشدودة إلى ذاكرةٍ اصطناعية مُنغلقة

ومنعزلة عن العالم؟ من يرى الآخر، أولريكا أم الشاشة؟ الذاكرة الطبيعية أم الذاكرة الاصطناعية؟

كان بحثي يستهدف العثور على أسطورةٍ أو خرافة جديدة من الماضي، نعم، لكن والأسطورة؟ ما الذي سيَحدُث للحكاية المُلتصِقة بها؟ هل من الضروري أن يكون الإنسان ميِّتًا كي يُجسِّدها؟ أبطال مُنتصرون أو منهزمون، شعوب لها نجومها وأخرى تركَع استسلامًا. كنتُ أراقب أولريكا وهي تطلُّ على شاشتها كما لو كانت جالسة إلى بيانو صامت أو إلى طاولة الزينة؛ إذ هي أمام الشاشة لا تكون أمام مرآة وإنما أمام خط، مؤطَّرة بذاكرة اصطناعية. اصطناعية؟ لكن كل شيء لعبة ولعبة مضادة من المظاهر. علينا أن نجد شيئًا آخر، أن نَخترِع ونكفَّ عن الاجترار، وعليَّ أن أفتح ذهني لمباغتات اللحظة وحدها.

خلال حديثنا، كنت أراقبها وهي تخزن المعلومات وتمحوها، تربط وتفكك بين الحروف والأرقام والخطاطات وترتيب الصفحات. كانت أولريكا نادرًا ما تنهض من مقعدها. وحين تتحرَّك فلكَي تُعاود الرجوع بسرعة إلى مكانها وهي تقضم حلويات صغيرة ذائبة من نوع «درمار» على ما أعتقد. أحيانًا تُذهلني الشاشة إلى حدٍّ لا أُميِّز معه جيدًا ملامح وجهها، وبتشجيع منها اشتريت حاسوبًا صغيرًا وبدأت الاشتغال بتُؤَدة. جنبًا إلى جنبٍ معها. أخذ مني ذلك أسبوعين. هكذا كنت أترجم بالأصابع نصوصًا عديدةً كانت بحوزتي. تعلمتُ أشياء كثيرة. كنتُ أُعمِّق تجربتي الملمسية التي أصبحت نواةً معرفيةً وذاكرةً للجسد، وفي نفس الآن أوسع مِن مجال رُؤيتي وملمَسي عبر الارتجاجات الصامتة للبشرة وتشنُّجها. كان تشنُّجًا يبدو منفصمًا تحت أشعة الحاسوب الصغير. ثم سجلتُ في الذاكرة هذا الاكتشاف الجديد.

ذات يوم، وبعد أن أحسستُ بتعبي أمام الشاشة، نهضت ووضعت يدَيها على عيني. تظاهرت بالنوم وأنا أصرح لها: لكن، أنت ناسجة أحلامٍ والغاز.

أجابتني:

– جيرار، أفق!

وما كادَت تسمع صوتي حتى تحرَّكَت واتجهَت نحو وسط الصالون برشاقة مُصطَنعة للغاية. استدارت نحوي وبدأت تُوقع حركات راقصة على الطريقة السويدية التقليدية. وبدون أن تُعير اهتمامًا لافتناني دعَت أول فارسٍ وهميٍّ للرقص معها، ثم ثانيًا وثالثًا تاركة يديَّ فارغتين. كانت هذه الرقصة على نغمٍ عتيق تُمكِّنُها، ومن دون تمايُل، من

أن تغدو ذلك الكائن الطافي والباسم لأشباح متخفية تحميه، وتمادَيتُ في متابعة حركات عينَيها وتموُّجات خصرها وإيقاع تحولاتها.

ثم جلسَت جنبي وناوَلَتني جعة وسمك رنكة مملَّحة ومحلاة. «رنكات تجعلك تحلم» كما يُقال عادةً هنا. لماذا عادَت إلى الجلوس بهذه السرعة؟ ألأنها كانت ذاهلةً أم لمجرَّد التعب؟ لا أدري. أظن أنها حين استعادت وضعيَّتها أمام الشاشة، كانت تهرب من حضوري الطاغي.

بورك ذاك اليوم الذي استطعتُ أن أجد فيه اسمًا وشكلًا لأسطورة الأصبعيات! لقد تكونت هذه الأسطورة لوحدها. وأنا مدين بذلك لهذا المثلَّث الجميل الذي تُشكِّل الروية طرَفه الأول واللمس طرَفَه الثاني، وصوت أولريكا ونبرته المعدنية طرفه الثالث.

كل أسطورة حكاية خرافية تجعلُنا نُنصت لتمتَمات الماضي وهمساته. ولقد قلتُ سابقًا إنه بإمكاننا أن نتخيَّل أصل العالم كفوضى أولية متبوعة بسُبات عميق للنجوم. كانت مهمَّتي تكمن في جمع بعض المقاطع المنثورة من الماضي السحيق في أنفاس الطبيعة وحكايات الإنسان، وتنظيمها تبعًا لحلمي النشيط. كنتُ ألاحظ وألقي بنظري هناك حيث يبدو أن الأسطورة تتغذى بذاكرة بصرية؛ ذلك أن كل أسطورة قد قيلت يومًا، ثم كُتبت ونسيت.

نعم. الأسطورة قابلة لكل البدايات. في بدء إقامتي في ستوكهولم اوليت اهتماما خاصا للساعات والاشباح السحرية القديمة مفترضا أن هذه القصص العتيقة قد تركت آثارها على السويديِّين ووجههم المنحوت. تخيَّلت لنفسي صورة مُجازية أكون فيها واقفًا على الثلج المغلَّف بنور خارق. كنتُ ألحظ علامات ذلك في الفن التشكيلي الشمالي وعلى وجوهِ المارَّة وخطواتهم وفي جاذبية النساء.

لكن كل هذا لم يكن سوى أُحجية. كان عليَّ أن أحلَّ لغزًا آخر وأفكَّ الفكرة السحرية الكامنة فيه. فحكايات الماضي التي يدعم حضورها هنا شتاء طويل، ذاكرة وأرشيف للذاكرة، بالرغم من أني لم أستطع إدراك النبض الذي يُشخِّص ما يقبل الرؤية في صورة أسطورية.

كانت أولريكا هي تلك الصورة مادية ورُوحية. كانت صحبتها إيذانًا بتبخُّر سِحري. هكذا أعدت خلق كل شيء انطلاقًا من صور أسطورية عتيقة: لينا المحلقة، أولريكا الأصبعية وألبرتو النظير الخارج من فضاء السحر. وبما أني راوٍ مُتعدِّد الكتابات، فإني أتجسَّد في هذه التحوُّلات الجسدية: أتحدَّث وأكتب، أتحدث وأُترجِم، وأنا الحاكي الذي كتب الحكاية. فهل انغلَقَ هذا المربع السحري على نفسه؟

جاء صوت ألبرتو ليَكسِر انغلاق تلك الدائرة. تلفنَ لي ورجاني الالتحاق به للتو. استقبَلَني بحفاوة كبيرة وحدَّثني لأول مرة بحميمية حقيقية: جيرار أيها الصديق، إن المرء لا ينسى آداب بلده الأصلي. تصوَّر، إننا لا نسمح لأنفسنا بطموحات كبرى في بلد غريب. ففي الخارج، نكون، نحن الإيطاليِّين، نَزِقين. إننا نمارس هذه الطلاقة حسب أذواقنا. نعمل ونتظاهر بالعمل. نضحك ونتظاهَر بالضحك. وأنت أيها الصديق الذي يُسافر عبر العالم، هل لاحظت العادات الغريبة للسكَّان الأصليين لكل بلد؟ هل انتبهت إلى الطريقة التي يُنصت بها اليابانيُّون ويصمتون؟ فاليابانيُّ يسمع، ومنذ آلاف السنين، بأذنه اليسرى، أي الأذن الصينية، وهو أصمُّ من الأخرى أي الأذن الكورية.

– والثالثة يا ألبرتو؟

– إنه يحتفظ بها لنفسه ... اسمح لي على الانزعاج. لن أتماطل كثيرًا في الاعتذار لك.

– لا تهتمَّ لذلك. لن تُصدقني إذا اعترفت لك بأنك أسديت لي خدمة جلَّى. فأنا منهار الأعصاب. وأنت تملك فن القادر دومًا على وضع نفسه في موقع السامع. أي الاهتمام بحالتي، إلى أين يسير مشروع فيلمك؟ هل يتقدَّم؟

– آه، نعم، رونيي ديكارت والموت. الفكر المتجمِّد. أنا محتاج إلى رؤية توضح ذلك بدقَّة. على السينمائي أن يُنجز فيلمه بعد الفنَّان التشكيلي، وعلى شاكلته. فالرسَّام يَملك كل وقته، كل وقته، على الأقل ظاهريًّا. إنه يضع لمساته الأخيرة على العمل ويُؤلف بين عناصره أو يفكك بينها. أما أنا فعليَّ إدارة طاقم التصوير. إنها آلة مالية ثقيلة الوزن، توليف بين الأبناك وهو شيء معقَّد للغاية؛ فتصوير شريط سينمائي يتمُّ بسرعة، لكن بالإمكان الإخفاق في كل شيء.

– أنت تشكو من السرعة، لكن سرعة التلفزة شيطانية.

– نعم. يَلزم للعمل فيها أن تكون ممثلًا جيدًا وبالوراثة.

على عادته غيَّر ألبرتو موضوع الحديث بغتة.

– هل سبق لك أن اطَّلعت على ساعات اسكندنافية؟

– الضروري منها.

– كيف ذلك؟

– ثلاث أو أربع ملاحم.

– السَّاغا حكاية مدهشة. وقصصها تتبدَّل باستمرار، سواء في الأدوار أو الشخصيات، أو في المناظر الطبيعية الحية والميتة أو التي تُقاوم الموت أو في المناظر الشبحية. لقد أصاب

بورخيص حين قال: الساغا تقنية سينمائية؛ ففيها يتم الانتقال من مقطع إلى آخر بدون أيِّ رابط. تُصبح الشخصية بطلًا وإلهًا، ثم شبحًا أو إنسانًا، عملاقًا أو قزمًا، لا يُهمُّ. ولا أحد يعرف السبب في ذلك. إنَّ هذا التقطيع ملائم جدًّا للسينما.

تابع ألبرتو فكرتَه من غير أن ترمش عيناه: لي نظرية حول السينما أعتقد أنها شخصية: على المخرج أن يتخيَّل في البدء أن كل شيء ميت، أن يُمرِّر هذا الوهم في مخيلته قبل النوم. بعدها يكتب خطاطة مُفصَّلة. وبعد أن يكون كل شيء جاهزًا، السيناريو والتمويل والطاقم، سيُصوِّر المُمثلين كي يرى ما تبقى فيهم.

– يا لها من نظرية غريبة! لم أفهم.

– ماذا؟! تصور ديكارت في السويد. إنه شخص غريب الأطوار ويبدو متشبثًا بفِكره: يأتي إلى السويد ويموت فيه. كل شيء يُساهم في غربته؛ الملكة والديوان الملكي والبلد. إنه مُنهَك. لذا يقرر الموت. وأنا أهرع لنَجدته ثلاثة قرون بعد ذلك. سأقوم بتصوير هذا القرار وتتكفَّل الكاميرا بالسفر عبر الزمن.

استمرَّ حديثنا إلى وقتٍ متأخِّر من الليل. هكذا بدأ تمرين تعليمي آخر. تمرين آخر في فكِّ السحر، ركنَت إليه نفسي. ظلَّت صداقتنا على حالها. ولن أُصدق أبدًا أن صداقة مثل هذه ستتوقَّف يومًا. وإذا ما غاب عني ألبرتو فإني سأثير دائمًا، كدليلٍ على وفاء صداقتي، شطحات هذا الفكر العميق.

خفَّفَت عذوبتُه معاناتي؛ فهي تُلائم حقًّا إصراري على طرد الأرواح الشريرة من داخلي عبر الاستعانة بنظراتي. لقد كشَف لي ألبرتو عن بعض أوهامي، علَّمني كيف أتجاوز الكرم أو الجحود، القُربان الذاتي وقانون التقاسم. علمني (أو أني انصعت لأتعلَّم) أن ما لا يقبل الاقتسام بين الأصدقاء أيضًا منَّة نادرة. إنه انعتاق من عواطفنا الخائبة.

تُضيء مُفارقات الصداقة الحب من الداخل، وهي تعين صدعه وفوضاه. هناك بين الحب والصداقة، سواءٌ في هذا الاتجاه أو ذاك، جسورٌ للعبور. بعض النساء يَعبُرنها في نشوة، وأخريات بمُعجم الحب الذي يَمتلكنَ. به يُسمين الأشياء، فأن يُصبح عشيقٌ قديم صديقًا، بعد أن كان مجهولًا لأنه كان متخفيًا عن الأنظار، شيء لم يَقتل الرغبة أبدًا. هناك أناس أكثر دهاء يتحدَّثون عن المحب والمحبة. لكن ممَّ تُعاني النساء؟

غالبًا ما أقول لنفسي إن الشكوى النسوية تعود إلى الخوف. إنها لكارثة أن تكون المرأة مهجورة! لكن من طرف مَن؟ فالهجر يُعمق الوحدة. وتعود المرأة للصرخة الأولية.

من يقدر على هذه المفارقة؟ لكني ألاحظ أن تلك الصرخة شرط لكلمة جديدة، وربما كانت شرطًا لكلِّ نشيد، وبدوري أقوم بالطرز والنسج.

لهذا لستُ ضدَّ أيِّ حب في روعته أو ضعفه، ولا ضد أيَّة صَداقة في وفائها المشاغب. وليس الممرُّ آمنًا من حالة إلى أخرى. كان ألبرتو يُساهم بطريقته الخاصة في فكِّ سحري. كان يقوم بالتعيين والتحديد، ويفتحني على تجربته المتفردة.

نعم. نعم، لكن لا شيء يضمن إفلاتنا من أهوال الصداقة. مرةً أتاني هذا الحلم حول تزوير الصداقة. رأيتُ فيما يرى النائم صديقًا قديمًا (من هو؟) على شكل سمكة هرنقة نَتِنة وإن كانت ما تزال حية، ومُملحة في قِطَع بصلٍ مُحلاة. كان يختفي هناك. يُدير رأسه حين يتمُّ الكشف عنه في تلك الوضعية، ويا لها من وضعية! كان يقفز مِن وعاءٍ زجاجيٍّ إلى آخر أشبه ما تكون بالأوعية المتَّصلة. وللتوِّ غدا شظايا زجاجية رُمي بها في بحيرة. فقط كان هذا التظاهر بالإغماء هو الذي جعله يبقى على قيد الحياة.

وبما أنَّ ذاك الصديق يعشق السرقات: وخاصةً سرقة الأفكار والكلمات والنساء فإنه يُقلد كل ما تقع عليه عيناه وكل ما يقع في أذنه. كم هو مِضياف! بالإمكان ملاحظة ذلك في تدُلِّهِ وفي شاربه الذي يُشبه شارب الكواسر.

ذلك كان هو حلمي، وحين أفقت قلت لنفسي: «يا لها من خدعة.»

لكن إذا كانت هذه الصداقة قد خابَت، فذلك لأني عانيت منها كحيوان، أما كروح فإنها تبدو نبتة جاحدة ينبغي شذَّبها مع النباتات الطفيلية.

إني أُكرِّر ذلك، فهذه الحكاية ليست رواية ذات مفاتيح.

تغيير في الاتجاه

كان الخريف قد نثَر على ستوكهولم أوراقه الأولى وإن لم يَكتمِل بعدُ اصفرارُها. وكان ذلك علامة على رحيلي مِن هنا. أعدتُ لسفين مفاتيح الشقة في صمتٍ كامل. هكذا بلَغَت مدة إقامتي نهايتها. عدت إلى باريس حيث كانت الوكالة التي أشتغل بها قد برمَجَت لي كل شيء: المحاضرات العمومية والمُناظرات والندوات المُغلَقة. خمسة أسابيع مشحونة بالعمل وموزَّعة على أشهُر مُتعدِّدة ستستقبلني. ولينا؟ اختفَت مع خطيبها. أما ألبرتو فقد وعدتُه بزيارته في الشتاء المقبل.

كنتُ جالسًا في الطائرة أحلم في شرودٍ حين قطع عليَّ إقلاع الطائرة حلمي، أنا المسافر العاشق. كانت الطائرة الآن قد استوَت فوق البحر. لا شيء يرتج في قلبي. كل شيء هادئ. كنتُ قد رتبت وثائقي وكتبي في الحافظة. نهضتُ وتناولتُ منها كتابًا لمؤلِّف مغمور، هل كنتُ تلقَّيتُ هذا الكتاب كرسالة شخصية؟ المهم أن قراءته ستُصاحبني حتى مطار «بواسي» الفرنسي. وبما أن عنوانه: «تغيير في الاتجاه» فقد أثار فضولي، وبدأت في قراءته بعد أن عدلت من وضعية مقعدي ووجَّهتُ مصباح القراءة تجاهي.

باعتباري إنسانًا فأنا عازب جغرافي، هجر غابته التي وُلد فيها ليتَّجه إلى المدينة الكبرى. وباعتباري رُوحًا فأنا مُمثِّل مسحور.

اسمي بيرتيل، وُلدت في «تورندهايم». ابنٌ لحارس غابة ورث هذه الحرفة أبًا عن جدٍّ. أما أنا فلم أَرِث شيئًا. في العشرين من عمري هاجرتُ إلى ستوكهولم. عشتُ البطالة ثم اشتغلت كمياوم. والآن أسكُن على حسابي الخاص في «غوبانغن». أعمل بنَّاءً، متوحِّد في صمتٍ صاخبٍ وعجيب.

أوسكار وزوجته أولًا دخَلا حياتي في نهاية هذا الصيف، دعياني مرة، على الأقل كي يجعلاني تحت المراقبة، أليسا جيرانًا لي؟ غالبًا ما كنتُ أمكث للمبيت عندهما، كنتُ أريد أن أختبر هذا الصمت المثير الذي يُسمرني في مكاني.

أظنُّ أنهما كانا الآن يَبحثان فيَّ عن رفيقٍ وَلُوعٍ بالخمرة، جالس إلى الأبد أمام زجاجة سنابس، غارق في صمتٍ مُطلَق، وبما أن أولًا كانت مشتعلة بمداعباتها فقد أهدَتني «رفيق» حبها؛ وذلك ما تقبَّلتُه بحميمية وإن لم أكن مؤمنًا به إيمانًا عميقًا.

وربما لأنهما وجداني مغنمًا في وحدتي، تبنَّياني كشبحٍ للبيت أكثر جاذبية من قطٍّ نائم في حكايات الحوريات. انتظَرْنا جميعًا عيد ميلاد المسيح ومعه سقوط الثلج والعُزلة قرب النار والطقوس الشتوية. بروتوكول فارغ بجمال إغفاءاته، هل حدث لي أن أطلقتُ مواءً؟ نعم، أظنُّ ذلك. فكيف نطلب من شبحٍ للبيت المسحور أن يكون خاليًا من الدهشة؟ كيف أكون قطًّا دون أن أكونه؟

كنتُ أحبُّهما وأعز اهتمامهما بوحدتي العميقة ونُقصان تجربتي. كنتُ مُلاحظًا أنظر إليهما يتحرَّكان بين الجدران والممرات والأبواب ويَعبُرانها بدون تغيير في الاتجاه. كانت نافذة غُرفتي تطلُّ على حديقة صغيرة رائعة الجمال. وكنتُ أطلُّ في الفراغ، في عز الشتاء، ومن غير عنفٍ أو قسوة.

كان كل شيء في الشقة أملسَ ونظيفًا ودقيق الترتيب. كل شيء كان مصقولًا في بيتٍ مِن البلور. كنتُ أتساقط ثلجًا. والشتاء جعل شَعري يتناثَر بنُدفِه الخفيفة. الشتاء مدَّد أصابعي. بردٌ وسُخونة جعلاني ملفوفًا بقطرات مطرٍ تُصيب عينيَّ اللتَين تَنحجِبان أكثر فأكثر خلال الليل.

هكذا جعلتْني خمرة السنابس أصم، غير حاسٍّ بتبدُّل الفصول. كنتُ أنزلق نحو اللاواقع، نحو رُوح البيت اللاواقعية، ظللتُ مُغلفًا بوحدتي التي أتقاسَمُها مع الآخرين من غير عناء، لذا بنَيتُ لنفسي بلدًا جديدًا؛ حيث أوسكار وأولًا ضيفًا ليلي المشمس.

لم أكن مُرتبطًا بأيٍّ منهما ولا مُنفصلًا عن أيهما. كلُّ شيء يتمُّ في أوانه: الأكل والحديث وأعمال الإصلاح المنزلي حول البيت وفي العتبة وعلى المدخَنة. كانت النار تَنبثِق مِن داخل فضاءٍ خرافي.

وبما أني لا أمتلِك سوى طموحٍ بسيطٍ فإني كنتُ أنتظر، وأنتظِر صخبَ النوم أكثر من أي شيء آخر. لهذا بالضبط كنتُ أحلم بالشامات والتوت البرِّي. كانت الغابة صاغية للنجوم، والنُّجوم واهبة نفسها لأيادي العرَّافات. لقد أسقطتُ أشجارًا بجُذوعها في أكثر الأنهار هيجانًا. ذقتُ الزبد المُتناثِر في الرِّبح ومشيتُ نحو المدينة عاريًا من أجدادي.

يا له من احتفال! كنتُ أنتشي مُتعة بين أولًا وأوسكار. هل كان الشرود الذي يغزُوني آتيًا إليَّ من حياة ماضية؟ من شتاءٍ عجيبٍ مُنغرِس في طُفولتي الصُّغرى؟ أما الطفولة

الكُبرى فهي صرخة، صمت ودوار. كنتُ يتيمًا من مُعتقدي الوحيد. لم أخف. هل ظنَّت رُوحي الغابوية أنها أحرَقَت كل شيء في طريق عودتها، هل أكون قد تحجَّرت على صخرة مِن جليد؟ أو قريبًا مِن شتاءٍ متأخِّر، قبل ذوَبان الجليد وانفجار البحيرة الطاهرة؟ أرى نفسي كما لو كنتُ مَجازًا مُفكرًا، جامدَ الحركة، قبل وداع الطيور.

ثم جاء الرعبُ يومًا، ضدًّا على انتظاري، بدأتُ أضطربُ، كان أوسكار يُجهِش بالبكاء في الوقت الذي كانت فيه أولًا مُنهمِكة في حَبكِ الصوف. كانت تَنسج بينَنا ما تبقَّى فيها مِن شهوة. شهوة كانت متغيرة ومتنامية حسب الفصول. فأنا أغدو متحجرًا كتمثالٍ حين أعيش شتاءً طويلًا. كان أوسكار يبكي بحنانٍ وأنا غارق في أحلامي.

كنتُ أخرج بالليل بدون وجهة محدَّدة، مُتسكعًا من حانة إلى حانة في مدينة تحجُب عني وجهها إلى درجةٍ تغدو معها مجالًا لحقيقتي الرائعة. أصبحَت دهشتي حادَّة مرةً أخرى. الصيف على وَشكِ الانتهاء، وكنتُ أخلط بين السنوات والقرون وتواريخ ميلادي. لم أكُن أحمقَ أو مهبولًا كما يُقال، بل مُرتويًا من تمنِّياتي. وأُولاها كما قال القسُّ الكبير شامان الغابة والثلج، هي أن أكون ملكًا للحياة، مُغطًّى بشجرة الرند وبالكثير الأكثر من الأوراق. وتلك الأوراق سقطت عند قدمي، جمعتها، ثم جاء دور الثلج والجليد على السهول وفي قِمَم الجبال والغابات المُكفَّنة، كنتُ أتزحلَق على الجليد أو الثلج وحيدًا أو مع زملاء العمل أو العطالة المطولة. هكذا وجدتُ نفسي أصعد أكثر فأكثر نحو الشمال، الشمال الكبير. أنا أتسلَّقُك دون أن تتجمَّد يداي، بعد سقطتي هناك قُرب القرية.

بعد أن أصبحت شامانيًّا (أو يساريًّا، قد أكون أخطأت في السمع) أعلن راغنار، ابنهما، أمامنا إلغاء الانتحار ونهاية مُراقبة الولادات وإلغاء الحياد وأعوام القحط. كان يَملك دراجة نارية أعارها لي مرة. انزلقتُ بها في الليل بسُرعة أربعين كلم في الساعة، وسط ضبابٍ كثيف. تجمَّدَت أطرافي خلال الطريق. في عيد القدِّيسة لوسْيا، تنكَّرتُ خلال الاحتفال في زيِّ الخطيب الأبدي، منَحُوني شراب المحبَّة. واختطفت المرأة الأولى وهي عروس. كان أنفي قد ازرقَّ مِن البرد، وكان أنفها ورديًّا، كل شيء في الجنة كان ملوَّنًا والجبال المُغطَّاة ثلجًا كانت كذلك. يَحدُث أن أُغني في الجنة إذا ما كانت الجنة شمسًا باردةً فوق ثلج راقص. كنت ثلجًا مدرارًا مثقلًا بوزنه، تركت على جسدها وبين فخذيها وضحكاتها الصارخة آثارًا، لا أدري أين، في ذلك الزمن البعيد، كادَت إحدى يدَيها، بل أحد أظافرها الذهبية المصبوغة أن تتجمَّد من البرد. قُدتها إلى بيئتها حيث أنا عشيقها السري، مجهول ومحجوب. أقضي ليلةً معها، وها أنا قد تخلَّصت من دهشتي.

مع الوقت تقوَّس ظهر أوسكار. أعتقد أنهم لكي يُقوِّموه وضعوا عليه لوحًا من خشب. وحين يُصبح ثملًا، يخفُّ اللوح، أحيانًا كان يُزيحه ويضعه تحت السرير، يا لها من عادة غريبة!

كانت أُولَّا امرأةً ذات طبع صوفي. حين كانت تُناديه «غورو» (شيخي الروحي) كان يُجيبها للفور غورًا (شيختي)! تلك كانت صرخة زواجهما ومُتعتهما، صرخة شِبه حيوانية وشِبه نباتية بين الغابات والمَغاور والبحيرات الشاطئية والنجوم. ولا شكَّ أن الأمر لا يزال كذلك. على الأقلِّ هذا رأيي وتلك رؤيتي للوجود الأول للجنس الإنساني.

أمسكَ أوسكار جذلًا بِنايِهِ، وبدأ يعزف لنا لحنًا آتيًا مِن أزمان سحيقة لا يستطيع أي سويدي يستحق هويتَه الأسطورية، أن ينشده. أحسست وأنا أنصت لتلك الأناشيد أني أستبدل قارَّةً بقارَّة وعصرًا بعصر. لا أتذكَّر الآن الموضوعات الرئيسية لتلك الأناشيد ولا تناميها الإيقاعي، لكنَّها كانت تمتدح باستمرار ملذَّات الجنة المُغطاة بالثلج.

أنا مُلزم بقول ما يلي وحكيِه بأمانة: كان أوسكار يضع القِرفة في الخمرة على طريقة أهل لابونيا؛ فالنَّكهة تُضيف دائمًا شيئًا من السعادة. سمعتُه يتكلَّم بصوتٍ عالٍ مُعتبرًا نفسه — يا للغرابة — محاربًا أعزل وسليل العاهرة المقدَّسة. كانت أُولَّا تَبتسِم، فهي كانت مُومسًا مقدَّسة من غير أن تكون معترفًا بها، ولا تمنح نفسها إلا لي أنا الهمَجي النازح من الشمال. فهي التي استضافتني وأنا في عز محنتي.

كانت أُولَّا، مِن جهتها، تتجرَّع شراب «الصافْت» مثلجًا مع قطعة سُوكِرْكُولا مغموسة في قشدة بالتوت البرِّي، أو العكس، لم أَعُد أتذكَّر جيدًا تلك الوصفة. مرة حكَت لنا حكاية واقعية، ذات يوم، تأثَّرت السويد بكاملها بمصير كلبِ صيدٍ قصير. نعم كلب قصير القوائم، وأصابتها الرأفة العُظمى لُصابِه. لكن، لا الصليب الأحمر (المُحايد واللوثري كما نعلم) ولا مصلحة الإطفاء ولا صور التلفَزة الوطنية استطاعت أن تُنجد الكلب.

يا لها من قصة عجيبة! ربما أصاب أُولَّا التأثُّر أكثر من الفتيات الذهبيات في مدينة بروما. صرَّحَت لنا بذلك ببساطة مشُوبة بالصرامة وعزَّة النفس. وإليكم ما حدَث. حين كانت تسمَع نباح كلبٍ وسط ليلِ سُكرٍ ومُنادَمة، كانت تتذكَّر بقلبٍ حنون ذاك الكلب المفقود، المصلوب بين الصخور، وتُفكر في رُوحه الضائعة في الإشاعات الخرافية. وأُولَّا؟ امرأة كأنها منحوتة بأيادي فلاحين من الجنوب، اختطَفَها أوسكار وهي ابنة السادسة عشرة. في عزِّ الصيف، خلال حفلة موسمية. كان شابًّا ممتلئًا حماسًا وعدوانية. كان خطرًا على المُراهقات والقدِّيسات المزيفات المُحترفات رغبةً والمُداوَرات لعيونه الساحرة،

كان يصعق ويسحق بجُنونه الوثني. روَّضَته أُولًا بفنِّها الحسَّاس وبحِيَلِها في التحوُّل الشبَقي والغذائي، وبالمُنادمة الرُّوحية أحيانًا.

أراه أمام عيني الآن، حيًّا كمُحاربٍ خرافي، بحُسنٍ شبيهٍ بحُسنِ إريك فون سيدوف الرائع. ورث خشونته عن أجداده، الأقدَمين، واحترق برَمادِهم. رماد مُتناثِر في حقول القمح وزهور النقل. حين ينام؛ حيث هو على سرير الراحة، كان يأخُذ شكلَ ظبيٍ ضخمٍ مشدود إلى جريهِ من جبلٍ وعرٍ إلى آخر. كانت نظراته لا تُقابل نظراتِ أُولًا، نظراته كانت تستدير.

في تلك الأثناء دخل راغنار (ابنه الوحيد) الشقة في عجَلة اختفى معها بسُرعة خاطفة في إحدى الغرف. كان راغنار يقوم بتمريناتِ جازٍ على آلة الباتري، في تلك الضاحية التي لم يَعِش فيها ربما أي إنسان أسود. آلة باتري في عمارة؛ حيث يأتي الثلج النفَّاث ليَرقُص فوق الأسطح مأخوذًا بإيقاع صورتها الجهنمي. كانت الموسيقى (؟!) تُهشِّم النوافذ وتصدَع الحيطان وتكسر الأبواب طابقًا بعد طابق حتى القَبو. العمارة بكاملها تتحطَّم. وكُنا نضع صماماتٍ كي لا نسمع فرقعات الصنوج.

كان راغنار يعشق الزلازل. مِن أين أتاه ذلك؟ ولو كان شيطانًا أطلقَته الطبيعة لتهشيم الجليد: Fan! Fan Ocksà. هكذا كان يقول وهو خارج يحمل في يده جعَّةً عوضَ مقرعات الجاز التي كان يَرمي بها فوق الكتب. وبما أن راغنار ترك الثانوية بسرعة فقد محَت الكتب من ذاكرته الإيقاعية وتآكَلَت لتعود إلى طبيعتها الورقية ثم إلى حالتها الأصلية كخشبٍ قطعَه الحطَّاب أو آلة نجَّار.

عاد الصمت ليعمَّ المكان، وتمَّ تشغيل التلفاز، أخذ كلٌّ واحد مكانه واندمج كل شيء في نظام الصخب وإشاعات العالم، حكاية بعد حكاية. وفي قلب الصورة التلفزية ظهرت شمس منتصف الليل.

كنتُ صامتًا وجالسًا بالقُرب من المدفأة أتأمل مشاهدَ ومناظرَ من البلد. كانت تأتي إليَّ كل مساء. تقترب الغابات وعوضَ أن تصعد نحو الشمال كانت تنزلق بين عيني، برياحها وجليدها وعواصفها وأضوائها وندائها الفضي.

كان أوسكار ينحني أكثر فأكثر نحو الأرض. هل كان يتخيَّل نفسه زقًّا مليئًا بالسنابس. ولتقويم اعوجاج ظهره وُضعَ له لوحٌ خشَبي آخر أكثر صلابة بسبب انحنائه نحو أُولًا بلُطفٍ وبسبب معاكسته لها أثناء تحركها.

كان يغيب عن البيت، مثله في ذلك مثل ابنه؛ فقد ورثَ عنه هذا الأخير عشق الفتيات المتنكِّرات في شكل غلمان. ولم يَنفلِت راغنار أبدًا من هذا الإرث. كانت تبدو عليه ارتعاشة

زائفة لليدَين وتشنُّج مُفتعَل للكتفَين. حين كان يُوقع على الباتري، كان جسد الأب يقف متخشبًا أمام الاستدارة المُكتملة للأم. كان راغنار يتخطَّى الدائرة العائلية، فيرتعش مسارُه بحضوري، لكن مَن لم يَعِش ذلك؟

كنا نحبُّ بعضنا البعض. والحب كان شمسًا حريرية ولمسة قلب. حبٌّ يرتاح قرب جسدَينا وشَعرنا المضفور باللحظات الأكثر نسيانًا.

ربما كان أوسكار سعيدًا. ما مهنته؟ فهو سليلُ عائلةٍ عريقة من مسَّاحي الأرض في «جامتلاند». غيَّر المِهنة والمدينة والزوجة. وقد أذاقته هذه الحركية غير العادية من الإهانة القاسية الكثير ... هو والسويد؟ أنا وبلدي؟ لكن كل شيء كان مثبتًا سلفًا في الخريطة الجديدة للبلد وفي أرشيفات الصورة والصوت. وهذا ما أقرؤه في الجرائد.

كان قليل الحديث عن مِهنته الجديدة. ولم يَسبِق لأوسكار أن تحدَّثَ عن أيَّة مِهنة أخرى. لم أره أبدًا يستقرُّ يومًا ولو لمجرَّد لحظة في إطار مهني محدد.

اعتقدتُ أنه يقترب من عمر التقاعد. كنتُ ابن الثلاثين وكان عمرُه ضعف عمري، وابنه في الثامنة عشرة. وأُولًا لم يكن في وَجهِها تجاعيد. وهو ما كان يَكفي لخلق (أو تحطيم) سعادة عائلة ليست بمتوسِّطة الحال وليسَت بفقيرة؛ عائلة وحيدة تملك ضمانًا اجتماعيًّا إلى آخر أيامها. وهذا ما شجَّع فيَّ رُوح المقاولة والمطالبة بالأجر، باعتباري عازبًا جغرافيًّا.

وأمام صمت أوسكار هذا، لجأتُ إلى اختلاق سيرة حياته. كنتُ أحكي له قصته الشخصية، وكان يجد مُتعة خاصة في الإنصات لي من غير أن يُعارضني في أية نقطة أو أيِّ حدث. كان بالأحرى يشجعني بهزة من كتفه أو بابتسامة لا تشوبها القسوة الماكرة ولا يصاحبها صفاء النظرة المُزعج. وحين وصلت إلى تلك المرحلة من حكايته (أما حكايتي فقد أصابها الغرق). كنت أستطيع السكن لدَيه من غير أن أعكِّر عليه بداية تقاعُده. ظللتُ حائرًا. كان يمر أمام عيني بحكمة سكِّير. وبفضل مشيته الواثقة والآلية اكتشفت هذه المدينة وظلها الخفي.

وأنا نفسي، باعتباري ظلًّا لماضيَّ الأكثر إظلامًا، هل أكون بالنِّسبة له غير انعكاس لشفافيته؟! غالبًا ما كان لا يفهم ما أحكيه له. لذا كان يَحني رأسه علامة على التواطُؤ والصداقة. كان لصمته الكثير من القوة الغامضة المحنَّطة تحت جليدٍ هشٍّ والمتراكمة داخل نظرة تكاد لا تتحرَّك.

كنت أراقبه في مسوخاته. وذات يوم، بينَما كنتُ أتصفَّح إحدى المجلات، دخل أوسكار ومعه فتاة مرحة. كانت أولًا قد خرجت إلى سوق الحي. أبنَتُ بدَوري عن رغبتي في الخروج. ألحَّ عليَّ أوسكار في المكوث بجانبه لُمصاحبته والفتاة في نزهة داخل البيت. وصَل ضيوف آخَرُون. وأُولًا أيضًا. ما الذي حدث؟ لا شيء. فذاكرتي لا تَحتفِظ بغير صورة نافذة مفتوحة. كانت السماء مرصَّعة بالنجوم. انحنى أوسكار في الفراغ ثم تراجع. لم أتحرَّك من مكاني. هل أعاد نفسه إلى الحياة بنفسه، أم أن هدوئي هو الذي جمَّد يأسه. المُهم أن شيئًا لم يحدث.

أظنُّ أنه في الغد فقَدَ عقلَه، على الأقل لمدة يوم مشهود. لم يكن قد فقَدَ توازُنه بعدُ. والغريب في الأمر أنه ظل محافظًا على هدوء غريب. كان ينحني من النافذة بطريقة مُغايرة وبمرونة جسد شبه مُنكسِرة. وعلى وجهِه ارتسمت ابتسامة خاطفة أسرع من سكِّينٍ ضاع في الظلام. كانت مشيتُه تُحاكي شكل الأشجار المُجاورة للبيت. أدركت أن تلك طريقته في استعراض ألَمِه ومحاكاته أمامي، أمام عيني ذاتهما. أفي هذا يكون خلاص المرء؟ كانت مُكابَدته قاسية، لكني لم أُلاحظ أيَّ أثر لذلك على ملامحه. كان يقتل نفسه من غير أن أسمع صراخ احتضاره. يَدفن نفسه حيًّا من غير أن أحضر موكب جنازة. يا لَلعبقرية! كانت المقبرة التي نراها قرب حديقة الكنيسة تُشكِّل جزءًا من فضاء واقعي محسوس جدًّا. لكن لا واقعيَّتهما معًا كانت تبدو لي مُبهمة. لم أحسَّ بوجود أي ثَمِل. هل أهرب؟ كان أوسكار جامدًا في مكانه، ثم بدأ يَقترب من أولًا كما لو كانت خطواته تتَّجه إلى الوراء، مُستسلمًا لسرِّها، سرِّهما الذي لم أستطع وُلُوجه أو مراقبة حبكته. وهي؟ كانت تتألم بشكلٍ آخر. كانت باسمة وذات نظرة ساخرة.

اختلط عليَّ الأمر، لماذا كان يتوجَّب عليَّ فهم ما يخصُّهما لوحدهما؟ وما الذي كان يعنيني منهما؟ لم أكن قد استوعبت جيدًا علاقتهما بالرغم من أنها شغلتني كثيرًا في تلك اللحظات من حياتي. وقبل أن أرحل عنهما استنفرت قوة الملاحظة والإبهام لديَّ: آكُل بدون أن آكُل، وأتحدث إليهما كبرعم نما قبل أوانه. كنتُ غريبًا عن المدينة، ضائعًا من فرط فضولي.

ظلَّ كل شيء في الشقة محافظًا على نظافته ويسير بعناية وبشكل صحي. كل واحد كان ينام كما العادة. ملفوفًا في لذة الماضي، كان أوسكار يشخر أو يتنفَّس بحدة. أما أولًا فقد كانت تحيك الصوف على عادتها. كنتُ أحسب الساعات. وعقارب الساعة كانت في صالحهما نظرًا للهدوء الذي يسود الأجواء. كنتُ أترقَّب انفجارات وصرخات أو تهليلات مهموسة من طرفِ شخصٍ مجهول.

أيضًا وأيضًا، لم يَحدُث ما يُزعج عيني أو سمعي الأكثر حميمية. بدأ الخوف يَغزُوني في هذا الاتجاه أو ذاك، وأحسستُ بالضياع مسكونًا بمرض يستعصي على الفهم والعلاج. إنهم صُوَر، وأنا شبح عائد من بلاد الموتى. بدأتُ أحسُّ أكثر فأكثر بالخطر المُحدق بي.

شربَ أوسكار حتى الثمالة القصوى. آنَذاك، نهضت أولًا وجلسَت في مكان أوسكار الذي كان منبطحًا على الأرض. كان من اللازم البدء من جديد ومُداوَرة الألم. ولو لم يكن بينَنا تلك الصداقة الغريبة لكنتُ طويتُ الصفحة. كان أخي إلْمير قد نصحني بذلك في التلفون. عاتبني لكوني أبذر كرمي. وضَع أوسكار مريلةً على عنقه. وجلس بهدوء ليبحث عن الشمس في شاشة التلفاز.

بدأ يُعلِّق على الأحداث المستجدة في العالم: فلسطين، البرسترويكا، نزع السلاح، حرب لبنان، كما لو كان مداره البحري يجري بسرعة الضوء. نام يومًا قرب التلفاز؛ فقد صعَقَته الصورة الأخيرة التي تلقَّاها، وتناثَر عقله المحطم في لجَّة النقط المضيئة. وانغلقت الشاشة على جثة.

هكذا مات أوسكار في التلفاز، كما نقول عن رجلٍ تعيس: إنه مات في الخيبة. رغبت أولًا بدورها في الموت. مُدعية أنها تريد الالتحاق بأوسكار هناك حيث تحتفظ يد الله بمشهد رجعة المسيح. لكنها لم تفعل ذلك. ظلَّت من غير زوج أو ولد أو نوم. هل بدأت تهذي بكل شيء وقد هيَّجها رُوح الأصبعيات؟

نعم، بدأت تقوم بهذا الطقس، إنه ملامسة الكائنات التي تُلاقيها في الطريق. كان ذلك نسجًا لذكرياتٍ تحياها من جديد بألقٍ بالغ. غدَت يدُها قوية ولونها حيويًّا، وبدَت شابَّة بفعل الموت المُفاجئ لأوسكار. استعادَت فتنتها. كانت يدها أرقَّ وأرهفَ من قناعٍ نباتي، ويدها بدأت تنفتح للأمطار والدموع وخرير المياه. كان شيءٌ ما غير محدَّد الملامح قد غزاها وتوغَّل ليَطال نظام بيتها. تغيَّر وضعُ المرايا واللوحات والأثاث وغدَت بدون متكأ. أصبحَت أُولًا تحتاج لمجهود خارق كي تُبدل أثاثًا أو تضع الزبدة على قطعة خبز. كانت تترنَّح كما لو كانت في أرجوحة وليد. ذهبت للاعتراف لدى القسِّ لكنه كان قاسيًا تجاهها، وبما أن المواساة لم تَعُد تُفيد فيها فقد أصبحت صعلوكة داخل بيتها تاركة للتلفزة تنظيم البيت وسرعة الزمن نحو النسيان المُطلق للذات. سكرت هي أيضًا بالسنابس. وعاشت في الخيال طفولتها وخطوبتها ولذاتها العالقة بذاكرة التلفزة. أحبَّت الأفلام والمسلسلات. وبسرور بالغ وإلهام مُتواصل غيَّرت من لونها متعجبة لكونها غدَت ميدوزا تبتلع الصور بسرعة خارقة. كانت ميدوزا حزينة سقطت على وجه الأرض من قرن إلى قرن، عند صلاة

العصر أو صلاة السحر، في قرية مهجورة قرب كنيسة القس. إلهة في لحظة الموت، مُثبتة على شاشة النواح.

مددتُ لها يدي وأنا أصمَتُ من تمثالٍ أثري، كانت يدًا ملائكية. نظرت إليَّ وقد أصبحت تُشبه الموت، غزاني الهلع أنا الملك اللاآدمي. صفقتِ البابَ ريحٌ قوية. هل كان من اللازم أن أهجر البلد؟ وها أنا ذا الآن بعيد، متَّجه نحو الجنوب.

أدركت أني اختلقتُ هذه الحكاية كي أقلب الصفحة. فجدِّي لأبي هو الذي علَّمني فنَّ الخرافة؛ ذلك أنه ليس من أسطورة مآلها الانمحاء، كما قال لي، وليس من صمت يسحقُه السواد، وليس من سوادٍ يغدو صفاءً، وليس من صفاء يتفرَّع في زهور الخليج، ولا مِن خليج يَروي الأرض ولا من أرض تنفتح للقبور ذات المُعجزات ولا من قبر يتطايَر نحو السماء؛ نعم، نعم ليس من سماء تتعدَّد حتى تَنثُر كل شيء في ثرياها، ولا من ثُريا تدور بشكلٍ لا نهائي حول نفسها، ولا من لا نهائي يَنبثِق من تعب الحياة، ولا من حياة تُلغي الموت. ثم غام الانهيار في زُرقة السماوات. كانت الريح قد لطَّفت من رؤية الكون مبيَّنة عن علامات كثيرة تحملها طيور مُغردة بفرح. قطرات مطرٍ كانت تلمَع وفُسيفِساء الغابة وقع تحت ضربة ساطور. لا تَحترِقي محبوبتي العزيزة! اترُكي الناس يقتربون من النار والموت من احتراقه. يتعفَّر النور والمناظر الطبيعية تغبرُّ معها الأشجار المُزهرة أو المقطوعة حبيبتي العزيزة اللازوردية، يا خطيبة قناعي، لقد اختلقتُ خرافتك حتى يطويَني النسيان، أنا حاكي الألغاز المُلائمة لمكري، لا حي ولا ميت: كل شيء مخبوء في ذاكرتي الأثرية؛ الغابة والبرد القارس؛ فأنا ممهور بالفرح المُشتعل. أنا الآن أمام حقيقتي، أتفرج عليها، مفتونًا وأكثر دهاءً من ديزا ساحرة جول. حبيبتي العزيزة: لا تنطوي على نفسك. لماذا؟ لا أدري، اسمعي. إليك أتحدث بدون وساطة. أعرض عليك لغزًا وأحلُّه أمامك، باللمسة الرقيقة لعينيك وفي ظلِّ حاجبَيكِ. حين تهربين بعد عناقنا في الفجر المُطلِّ علينا، أنهَض يا محبوبتي الغالية مع ضوء الصباح. وأسهر بثقة نفسٍ على قوة الحسرة العظمى.

ذكَّرتني هذه الحكاية التي تركتني ساهمًا بمربعي السحري أيَّ كشَّافٍ أساطير أنا لا أدرك كل ما يخترقه ذاك المربع من لا عقلانية، لكن ما أعرفه هو أنه قد أرسل قوة مغناطيسية همَّشتني أنا جيرار نامير راوي هذه الحكاية.

سويتُ مقعدي، أطفأت النور وفتحت ثقب تهوية. عادت الحكاية إلى ذهني كعلامة أخروية. هل كنت أرتعش؟ وفيما أنا أُحدق في السماء وألفُّها بنظري عبر منحنى النافذة،

خُيِّل إليَّ أني أسمع صوت ألبرتو يهمس لي: تأكَّد أننا في سماء حساب وبأن رحلتنا، أنا وأنت، لم تكن مُمكنة بغير هذه المفارقة بين المادة وولادتنا للنور، فهل تصغي إليَّ؟

نصٌّ كُتب في ستوكهولم والرباط (يونيو ١٩٨٨م–يونيو ١٩٨٩م)

هنـــداوي